جامعة القدس المفتوحة

عمادة الدراسات العليا والبحث العلمي

اللغة العربية وآدابها

الحِس بالمستقبل في الشعر الفلسطيني المعاصر/إبراهيم طوقان ومحمود درويش نموذجاً

إعداد:

فاطمة محمود سليمان صهيوني

0330011510028

إشراف:

د. ياسـر أبو عليان أ.د حسـن السـلوادي

قدمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير من كلية الدراسات العليا/جامعة القدس المفتوحة في برنامج اللغة العربية وآدابها.

2019

فلسطين

فهرس المحتويات

الموضوع	الصفحة
فهرس المحتويات	أ
إقرار	ب
قرار لجنة المناقشة	ج
التفويض	د
الإهداء	ه
الشكر والتقدير	و
الملخص	ز
الملخص باللغة الإنجليزية	ح
مقدمة	ط
الفصل الأول: الحِس بالمستقبل في شعر إبراهيم طوقان	1
أولاً: حكومة الانتداب والأطماع الصهيونية	2
ثانياً: قلة الوعي الشعبي	12
ثالثاً: الزعامات في الوطن	24
رابعاً: الزعامات العربية	36
خامساً: السماسرة	46
الفصل الثاني: الحِس بالمستقبل في شعر محمود درويش	55
أولاً: قراءة التاريخ	56

إقرار

أنا الموقعة أدناه مقدمة الرسالة الموسومة بـــ:

الحِس بالمستقبل في الشعر الفلسطيني المعاصر/إبراهيم طوقان ومحمود درويش نموذجاً

أقر أن مضمون الرسالة جهد ذاتي باستثناء الاقتباسات والإشارات الواردة في الحواشي. وأن الرسالة لم تُقدم من قبل للحصول على درجة علمية في أية جامعة أو مؤسسة تعليمية.

أقر أن مضمون الرسالة جهد ذاتي باستثناء الاقتباسات والإشارات الواردة في الحواشي. وأن الرسالة لم تُقدم من قبل للحصول على درجة علمية في أية جامعة أو مؤسسة تعليمية.

اسم الطالبة: فاطمة محمود صهيوني

التوقيع:.....

التاريخ:

قرار لجنة المناقشة

الحِس بالمستقبل في الشعر الفلسطيني المعاصر/إبراهيم طوقان ومحمود درويش نموذجاً

إعداد:

فاطمة محمود سليمان صهيوني

نوقشت هذه الرسالة (يوم بتاريخ 2019/٢م الموافق ٤ جمادى الأولى هـ) وأجيزت

أعضاء لجنة المناقشة	التوقيع
1. أ.د حسن عبد الرحمن السلوادي (رئيسا)	
2. د. ناهض حتر.....(ممتحنا داخليا)	
3. د. ناجي عباس.....(ممتحنا خارجيا)	

التفويض

جامعة القدس المفتوحة

كلية الدراسات العليا

(نموذج تفويض)

أنا فاطمة محمود صهيوني، أفوّض جامعة القدس المفتوحة بتزويد المكتبات أو المؤسسات أو الهيئات أو الأشخاص بنسخ من رسالتي عند طلبها، بما يتفق وتعليمات الجامعة.

اسم الطالبة: فاطمة محمود صهيوني

التوقيع: فاطمة محمود صهيوني

التاريخ: ١٦/٣/2019م

الإهداء

إلى معلم البشرية جمعاء نبينا **محمد صلى الله عليه وسلم**

وإلى روحَيْ والديّ الحبيبين رحمهما الله

وإلى أختي الغالية (ميسون) التي دعمتني مادياً ومعنوياً

و إلى روح الشاعرين طوقان ودرويش اللذين مهدا طريق الغياب الجزئي عن أمنا الأولى إلى إياب سرمدي لا سبيل بعده

وإلى كل من وقف بجانبي من قريب أو بعيد ومدّ لي يد العون في اقتناء نجوم من سماء الكتب الأدبية من مختلف مكتبات الوطن

وإلى أرواح **الشهداء** الذين رووا بدمائهم تراب فلسطين الحبيبة

ثم إلى كل من علَّمني حرفاً وأصبح سنا برقه يضيء الطريق أمامي

أهدي هذا العمل المتواضع

الباحثة:

فاطمة محمود صهيوني

شكر وتقدير

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خير الأنام سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وعلى الصحابة أجمعين أما بعد...

فإني أحمده سبحانه وتعالى، وأشكره على ما أنعم عليَّ بنعمة العقل والدين، ووفقني لإنجاز هذه الدراسة، فهو القائل في محكم التنزيل **{عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَم}[العلق:5].**[1]

و أشكر كل من ساندني في إنجاز هذه الدراسة، وفي مقدمتهم أستاذي الدكتور ياسر أبو عليان رحمه الله تعالى، الذي تحملني و دعمني أكاديميا، وأرجو من الله تعالى أن يتغمده برحمته ويجعل قبره روضة من رياض الجنة. ولا أنسى الأستاذ الدكتور حسن السلوادي الذي تكفل بإكمال هذه المسيرة، فله جزيل الشكر، و رزقه الله نعمة الصحة و العافية.

وأيضا وفاءً وتقديراً واعترافاًمني بالجميل أتقدم بجزيل الشكر لتلك الأيادي الخفية التي ساندتني في اقتناء المصادر والمراجع المهمة فيما يتعلق بمضمون دراستي، وأخص بالذكر مكتبات الوطن في محافظة رام الله و البيرة و غيرها.

ولا أنسى أن أتقدم بجزيل الشكر للأساتذة الذين درسونا، وقاموا بتوجيهنا طيلة هذه الدراسة في جامعتي الحبيبة **(جامعة القدس المفتوحة)** أعلى الله صرحها، وحفظ القائمين عليها.

وأخيراً أتقدم بجزيل شكري إلى كل من مدَّ لي يد العون والمساعدة في إخراج هذه الدراسة على أكمل وجه.

الباحثة: فاطمة محمود صهيوني

ملخص

الحس بالمستقبل في الشعر الفلسطيني المعاصر/إبراهيم طوقان و محمود درويش نموذجا

جاءت هذه الدراسة لتبحث في ظاهرة الاستشراف في الشعر الفلسطيني المعاصر عند كلا الشاعرين، إبراهيم طوقان ومحمود درويش، وقد قُسمت إلى فصلين اثنين وصدرت بمقدمة، سلطت الباحثة في الفصل الأول منهما الضوء على الحــِس بالمستقبل في شعر إبراهيم طوقان، وعلى

[1] العلق: 5

المسوّغات التي دفعته إلى استشراف الواقع التشاؤمي (حكومة الانتداب والأطماع الصهيونية، وقلة الوعي الشعبي، والزعامات في الوطن، والزعامات العربية، والسماسرة).

و في الفصل الثاني وقفت على الحِس بالمستقبل في شعر محمود درويش، وعلى المسوّغات التي دفعته إلى استشراف الواقع التفاؤلي لصالح القضية الفلسطينية؛ (قراءة التاريخ، وحركات التحرر، وعوامل الوحدة العربية والزعماء القوميون، والدور الثقافي/الثقافة العربية الإسلامية، والعوامل الخاصة بالعدو الإسرائيلي).

ومن أبرز النتائج التي توصلت إليها هي العوامل التي ساعدت على وجود الحس المستقبلي والتي تمثلت بقوة البصيرة لدى الشاعرين في توقع الآتي الغائب ووعي كل منهما بما يجري حوله.

The foresight of future in the Contemporary Palestinian poetry / Ibrahim Toukan and Mahmoud Darwish as a Sample (An Artistic objective Study)

Absract

This study tried to examine the phenomenon of foresight in the Contemporary Palestinian poetry of the poets: Ibrahim Toukan and Mahmoud Darwish. The study has been divided into two chapters and issued with a preface. In the first chapter the researcher shed light on the foresight of future in the poetry of Ibrahim Toukan, and the reasons that led him to foresee the pessimistic reality reperesented by (the Mandatory Government, the Zionist ambitions, the lack of public

awareness, the nature of local leadership that topped the political scene at home, and the Arab leadership and the brokers).

The second chapter dealt with the foresight of the future in the poetry of Mahmoud Darwich and the reasons that led him to foresee the optimistic reality in favor of the Palestinian cause: (reading history, liberation movements, the factors of Arab unity, the national leaders, the role of culture, the Arab and Islamic culture and factors related to the Israeli enemy).

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين الصادق الوعد الأمين محمد المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله وصحبه الطيبين الكرام، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين وبعد،

يعدُّ الشعر الفلسطيني المعاصر حاضنة لكثير من الشعراء الذين تغنوا ومجدوا اسم الوطن في الماضي والحاضر، فيما أطلق عليه الاتجاه الوطني في الشعر الفلسطيني المعاصر ويعني "الاتجاه الذي اتخذ من القضية الفلسطينية، محورا له، وعالج قضاياها ومشكلاتها بمختلف أبعادها ومستوياتها، وعالج قضايا الشعب الفلسطيني ومشكلاته، قبل النكبة وبعدها، سواء كان ذلك داخل الوطن المحتل أم خارجه، والتزم بتلك القضية من خلال حبه لوطنه، وانتمائه إليه، ومتابعته لأحداث وطنه وتأريخه له، وشرح أبعاد قضيته إقليمياً وعربياً وعالمياً، من خلال تأكيده لوجهها الفلسطيني وقوميتها العربية، وإلهاب الحس الجماهيري الوطني، وبث روح الحماس والوطنية في نفوس الشعب، لتجنيد القوى الفلسطينية والعربية والإنسانية كافة للدفاع عن تلك القضية، بالإضافة إلى تحسس آمال الشعب الفلسطيني وآلامه داخل الوطن المحتل وخارجه، وبث روح الأمل في نفس الإنسان الفلسطيني، وتوجيهه الوجهة السليمة لمواجهة واقعه بصبر وبسالة"[1].

[1] أبو شاور، سعدي: تطور الاتجاه الوطني في الشعر الفلسطيني المعاصر، ط1، المؤسسة العربية للدراسات و النشر، بيروت، 2003، ص21.

نبعت أهمية الشعر الفلسطيني المعاصر من الأحداث التي شهدتها الأرض الفلسطينية منذ أكثر من مئة عام، وكانت مهمة جنود الشعر استشرافَ واقعِ البلاد وما ستؤول إليه في خضم المؤامرات والضياع الذي يُعانيه الشعب.

لعل سبب تنبؤ الشعراء بما سيحدث على الأرض جاء نتيجة نظرتهم الثاقبة وانخراطهم مع المجتمع المحلي والسياسي ونقده، فالنظرة التنبؤية التي أصابت الهدف وتحققت كانت منذ عصور حاضرة في استشرافها منذ زرقاء اليمامة وضياع الأندلس إلى ضياع فلسطين.

وكان لانسلاخ الشاعر عن طبقته ووسطه الاجتماعي –باعتباره محايداً في مواقفه عنها- دورٌ مهمٌ في تسريب أفكاره التشاؤمية أو التفاؤلية في ثنايا شعره، وبثها رسالة توعوية لإيقاظ الشعب من سُباته والتنبه لمخططات العدو وعملية سلب الأرض، وبث روح العطاء والأمل في نفسه لاستعادتها وتحريرها من جديد.

تضمن شعر الاستشراف عند طوقان ودرويش جانبين مهمين في حياة الشعب الفلسطيني، وهما جانبا الأخذ والضياع والاستعادة والتحرر، حيث انحصر الأول في مضمون الحِس التشاؤمي المستشرف بضياع الأرض وتهجير سكانها، فيما دعا الجانب الثاني إلى الحِس التفاؤلي الذي استشرف عودة صاحب الأرض إلى أرضه بعد تحريرها.

ويقصد بشعر الاستشراف "مخالفة الشاعر سير الزمن، لتوقع أحداث مستقبلية قبل وقوعها، فمن القصائد التي استشرفت المستقبل في شعرنا العربي الحديث، قصيدة (إرادة الحياة)[1] لأبي القاسم الشابي التي استشرفت ثورة الشعب التونسي ضد الاستعمار الفرنسي. وقصيدة (لا تصالح)[2] لأمل دنقل التي استشرف فيها معاهدة كامب ديفيد[3] قبل قوعها"[4].

من هنا كان لا بد من معرفة دور المثقف أو الشاعر والوظيفة الملقاة على عاتقه، فهو من "يواجه الأفكار التقليدية والأيديولوجية المتحجرة المتراكمة على مر العصور، ويسعى لبناء رؤية مستقبلية، لتحقيق التغير واكتشاف أدواته المتحضرة. إن وظيفة المثقف استشراف المستقبل والسعي لتطوير الواقع، وتقديم الحلول والخطط لتحقيق حياة أفضل لمجتمعه ووطنه"[5].

---

[1] الشابي:أبو القاسم، اليوان، ط2، دار الكتب العلمية، بيروت، 1995، ص25.

[2] دنقل، أمل: الديوان، ط3، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1987، ص324.

[3] استشراف تفاؤلي

[4] البصراوي، هيفاء: الاستشراف في الشعر، مجلة الجزيرة الثقافية، 19 كانون الأول/ديسمبر 2015.

[5] عبد الغني، هاشم: مهمة المثقف استشراف المستقبل، مجلة الوطن، الأربعاء 15من ذي الحجة 1438هـ / 6 سبتمبر 2017م، ع 8039، ص28.

أولا_ أهمية الموضوع وسبب اختياره:

إن القضية الفلسطينية هي أهم القضايا المتداولة على الساحة العربية العالمية، ولأن أسرارها الدفينة لا تنتهي، فكان لا بد من عملية تحرٍّ وتفتيش في الأحداث التي شهدها الشعب الفلسطيني قبل حدوث إعصار النكبة والنتائج المترتبة عليه، فلم يقتصر الشعراء على سرد الأحداث التي ألمت بالشعب وإنما عُنوا بإبراز ذاك الضوء الخافت في ظلمة الليل والذي يحمل في مسيرته وقعا تشاؤميا وآخر تفاؤليا على الشعب الفلسطيني.

وقد كان لاستشراف الأحداث في الشعر الفلسطيني المعاصر، ورسمها بصورة مستقبلية دقيقة أثر في الإحباط قبل وقوع النكبة، وأثر في بث شعاع الأمل بعد وقوعها، وكانت النكبة بمثابة مخطط استراتيجي رسمه كل من طوقان ودرويش في ذهنيهما في عملية تقسيم الأرض وضياعها ومحاولة استعادتها من جديد.

وكثيرا ما تخطر هواجس النكبة ويدقُّ ناقوسها الدامي في ذاكرة الشعب الفلسطيني، وكأنها الكابوس الذي لا ينتهي والبركان الذي انفجر، وما زال دخانه يتصاعد إلى الأفق، وكأن الأرض على

موعد مع تلك السواعد التي ستحمل في شرايينها ماء الحياة، لتطفئ ذاك الغبار المتصاعد من فوهة الألم نحو أمل قادم متجدد.

فالأرض هي نقطة الارتكاز الرئيسة المتصارع عليها بين صاحب الحق المسلوب، والغريب المعتدي الذي يدعي أحقيته بما لا يملك، والشعراء بدورهم أظهروا أهميتها وحذروا من ضياعها وبثوا مشاعر الحب والحنين التي لا تليق إلا بها، وتمسكوا بها، وحثوا على ضرورة اللقاء من جديد في حضنها الدافئ الذي لم يلبث يدعوهم لينضموا إليه.

وهذا ما دفع الباحثة إلى محاولة تسليط الضوء على أهم المسوغات التي دعت كلاً من الشاعرين إلى التشاؤم والتفاؤل في توقع الآتي الغائب، ودور هذه المسوغات في هدم الحلم الفلسطيني وإعادة تشكيله من جديد داخل الوطن وخارجه.

فمنذ غياب نجم طوقان وولادة نجم رفيقه درويش حتى وقتنا الحاضر ونحن نعاصر مصطلحات الألم والبؤس من وعد بلفور والنكبة والنكسة إلى انتفاضات الشعب المتكررة، فما زال العديد من الشعراء الفلسطينيين يكملون المسيرة التفاؤلية.

إن دراسة القضية الفلسطينية في نطاق الشعر الفلسطيني المعاصر أمر مهم للغاية، فالأمور الغامضة في الكتب التاريخية نجدها حية مباشرة في الشعر بصورة تفصيلية خالية من الغموض والنفاق، وبخاصة عندما يكون الشاعر منحازاً عن طبقته ومعارضا لسياسة بلده.

إن الشعراء هم المُنبه الذي يهتز في جسد الأمة كلما تداعت عليها الهموم، لكي يستثيروا فيها حميتها من خلال ذكريات الماضي وأصالته واستحضار المستقبل واستشرافه، فلم يتركوا بابا يتعلق بقضيتهم إلا طرقوه غير آبهين بردة الفعل المعارضة لمواقفهم، وجاءت هذه الرسالة الموسومة بـــ (الحِس بالمستقبل في الشعر الفلسطيني المعاصر/إبراهيم طوقان ومحمود درويش نموذجا) دراسة غير مسبوقة على حد علم الباحثة، ولكنها جاءت في كتب ودراسات هنا وهناك. وقد قامت الباحثة بعرض أهم مسوغات التشاؤم التي مهدت لضياع الأرض من جهة، ومسوغات التفاؤل التي حثت على التمسك بالأرض والعودة القريبة.

وعمدت هذه الدراسة إلى دراسة الحِس بالمستقبل في الشعر الفلسطيني المعاصر، لما في شعر طوقان ودرويش من تنبؤات تحققت وأخرى لم تتحقق بعد، وقد جاء ذلك مدعما بمسوغات عدة وفق مستويين اثنين:

الأول: المفاهيمي (الموضوعي)، حيث عرضت الدراسة مصطلحات عدة أصبحت دارجة على الألسن بقدر ما ارتبطت بواقع القضية الفلسطينية.

الثاني: التحليل النفسي للأفعال و المفردات التي تضمنت معنىً تشاؤميا أو تفاؤليا وتأثير ذلك على الأحداث.

ثانيا_ الدراسات السابقة:

لم أجد دراسات سابقة تعلقت بموضوع دراستي وإنما كانت مقالات فرعية تطرقت إلى الموضوع في مجلات عدة، حيث لم تتجاوز هذه المقالات صفحة واحدة.

وكان من أهم المصادر والمراجع التي اعتمدت عليها الباحثة في الدراسة: ديوان الشاعر إبراهيم طوقان، والأعمال الكاملة للشاعر محمود درويش.

ثالثاً_ منهجية البحث:

اعتمدت الباحثة في إنجاز دراستها على المنهج الاستقرائي التحليلي؛ وذلك لأنه انتقل بنا من الجزء إلى الكل ومن الخاص إلى العام فالملاحظات البارزة في شعر طوقان ودرويش زوّدتنا بإشارات واضحة لرسم خارطة الطريق الصحيحة، وفق تعليمات منطقية لصالح القضية الفلسطينية والعربية.

الفصل الأول

الحِس التشاؤمي في شعر إبراهيم طوقان

مسوّغات التشاؤم في شعر إبراهيم طوقان

أولاً: حكومة الانتداب و الأطماع الصهيونية

ثانياً: قلة الوعي الشعبي

ثالثاً: الزعامات في الوطن

رابعاً: الزعامات العربية

خامساً: السماسرة

أولاً: حكومة الانتداب والأطماع الصهيونية

من أهم العوامل التي عصفت بشعر طوقان نحو موجات متفرقة من التشاؤم وجود حكومة الانتداب البريطاني والأطماع الصهيونية، "ولا شك في أن اهتمام حكومة الانتداب البريطانية الأساسي كان خدمة المصالح اليهودية، و تنفيذ وعد بلفور[1]، لذلك كان أول إجراء قامت به الحكومة البريطانية بعد إلغاء الأحكام العسكرية في أعقاب الحرب العالمية الأولى، وإعلان الانتداب البريطاني على فلسطين تعيين السير(هربرت صموئيل) أول مندوب سامٍ بريطاني في فلسطين، وهو من غلاة اليهود الصهيونيين، عينته بريطانيا خصيصاً ليساعد ويمهد لإنشاء الوطن القومي اليهودي، وأخذت القوانين تُسن بهدف تمكين الصهيونية من انتزاع الأرض العربية، وإبقاء الفلاحين في حالة من الفقر والتخلف"[2].

الشاعر يتنبأ بالواقع المأساوي الآتي لا محالة، ويحذر من الطامة الكبرى التي ستصيب الشعب والوطن، ويكتب قصيدته (مناهج) متأثراً من خلالها بما ستؤول إليه أحوال البلاد:

(البحر الوافر)

أمامـــــكَ أيهـــــا العربـــــي يـــــومٌ تشـــــيبُ لهولـــــهِ ســـــودُ النواصـــــي

مصـــــيركَ بـــــاتَ يلمســـــهُ الأدانـــــي وســـــارَ حديثـــــهُ بـــــينَ الأقاصـــــي

فـــــلا رحـــــبُ القصـــــورِ غـــــداً ببـــــاقٍ لســـــاكنها و لا ضـــــيقُ الخصـــــاصِ

لنـــــا خصـــــمانِ: ذو حـــــولٍ وطـــــوْلٍ وآخـــــر ذو احتيـــــالٍ و اقتنـــــاصِ

تواصـــــوا بيـــــنهم فـــــأتى وبـــــالاً وإذلالاً لنـــــا ذاكَ التواصـــــي

منـــــاهجُ للإبـــــادةِ واضـــــحاتٌ وبالحســـــنى تُنفـــــذ و الرصـــــاصِ [3]

فقد وقعت النكبة بعد انتقال طوقان إلى الرفيق الأعلى بسبع سنوات، وحصل ما تنبأ به حقا، فما عاد الشعب يملك قصوراً ولا بيوتاً وهُجّر معظم الشعب الفلسطيني إلى بقاع الأرض كافة، وشهد العالم أجمع هذه المأساة دون أن يحرك ساكنا، فقد كان مشاركاً في حفلة تتويج اليهود على أرض فلسطين وتشريد أهلها منها، ويذكر طوقان السبب الرئيس وراء ضياع الأرض ومحو هويتها العربية والإسلامية، وهو

[1] هو الاسم الشائع المطلق على الرسالة التي أرسلها آرثر جيمس بلفور بتاريخ 2 نوفمبر 1917 إلى اللورد ليونيل وولت ردي روتشيلد، يشير فيها إلى تأييد الحكومة البريطانية إنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين. ar.m.wikipedia.org

[2] الدجاني، أحمد زكي: مأساة فلسطين بين الانتداب البريطاني ودولة إسرائيل، ص86.

[3] طوقان، إبراهيم: الديوان، ط2، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1993، ص87.

دولة الانتداب البريطانية التي جلبت اليهود من أقصى بقاع الأرض إلى فلسطين، وقدمت للحركة الصهيونية المُعادية دعماً مادياً ومعنوياً وعسكرياً بهدف توطين الصهاينة في فلسطين وجعلها أرضا يهودية، وهكذا قامت بريطانيا بإعطاء ما لا تملك إلى من لا يستحق. وتؤكد شقيقة الشاعر فدوى طوقان بأن أخاها كان صاحب رؤية تنبؤية، تنبأ بالتشرد والنكبة، وأحس بنبض المأساة قبل وقوعها، فانطلق من تلك الرؤية التنبؤية محذراً من سوء المصير، وتشير أيضاً إلى أن أخاها إبراهيم رفد الشعر الفلسطيني بمنهجية الواقع المأساوي، وصدق رؤية الأحداث المتعاقبة، كتهيئة الجو الفلسطيني لسياسة النزوح و تسليم البلاد للعدو الصهيوني. [1]

كانت النكبة من نبوءات طوقان التي تحققت فعلاً مع بداية منتصف ليل مايو أيار 1948م وانسحاب الجيوش الشقيقة كونه يستبق وحشية وقسوة الفجيعة[2]، وإذا ما عدنا إلى الأبيات السابقة، فنلاحظ الأسلوب الخطابي لدى الشاعر، والمصحوب بنبرة التحذير والترقب مما هو آت، وجاءت صيغة الخطاب مخصصة للفرد العربي، وليس الفلسطيني فحسب، وذلك يوحي إلى ضرورة التنبه والنبوءة المستقبلية التي يمتلكها الشاعر، فالخطر لا يهدد أبناء الشعب الفلسطيني فقط، وإنما يشمل كل من ينتمي إلى أصالة العرب قلباً ودماً، وإذا ما تناولنا هذه الأبيات من خلال الرؤية المستقبلية الحالية، فإن الخطر المحدق الذي تكلم عنه طوقان لم يصب بلاده فلسطين فقط، بل طال البلاد العربية المجاورة كمصر والأردن، ومن هنا تبرز صيغة الخطاب الخاص للإنسان العربي الذي شُرد من أرضه قسراً دون سابق إنذار. وكأن هذه الرسالة الخطابية ما زالت جارية الإرسال للفرد العربي على مر الأزمان والظروف، وغير مقترنة بزمن وظرف واحد يتعلق بما قبل النكبة من أحداث على الساحة الفلسطينية.

كان طوقان يعرف سلفاً بهول أحداث النكبة التي أصابت عرب فلسطين وشردتهم إلى آفاق نائية من الأرض في دول أوروبا وأمريكا الجنوبية وأمريكا الشمالية، وقد يقول قائل: ما الذي جعل طوقان يتوجه نحو العامة بالتنبيه والتوعية مما ستجلبه الأيام من بلاء على الحجر والبشر معا؟؟ فقد شهد شاعرنا المولود عام 1905م ما تعرضت له فلسطين من أحداث قاسية، حيث تفتحت عيونه على حكم المستعمر البريطاني وما قامت به الصهيونية العالمية من عملية تهويد للأرض الفلسطينية تحقيقاً لأهدافها.[3]

---

[1] ينظر: طوقان، فدوى: إبراهيم و أنا. مجلة الجديد في عالم الكتب و المكتبات، دار الشروق للنشر و التوزيع، ع 6، 1995. ص21.

[2] ينظر: برزق، مروان محمد: الشاعر إبراهيم طوقان يملك نبوءة التشرد والنكبة، مجلة الموقف العربي، ع73، ص140.

[3] ينظر: الطريفي، يوسف عطا: إبراهيم طوقان حياته و شعره، المكتبة الاهلية للنشر و التوزيع، عمّان، ط1، ص80.

و في قصيدة أخرى للشاعر بعنوان (أيها الأقوياء)، يوجهها طوقان بنبرة صريحة لدولة الانتداب البريطانية و بأسلوب الشاعر الساخر من غطرسة الدولة المنتدبة التي أصبح قناعها يتكشف عن وجهها يوما بعد آخر:

(البحر الخفيف)

قـــد شـــهدنا لعهـــدكم (بالعدالـــة) و ختمنـــــا لجنـــــدكم بالبســـــالة
و عرفنـــا بكـــم صـــديقاً وفيـــاً كيـــف ننســـى انتدابـــه و احتلالـــه
و خجلنـــا مـــن (لطفكـــم) يـــوم قلـــتم: وعـــد بلفـــور نافـــذٌ لا محالـــة
كـــل (أفضـــالكم) علـــى الـــرأس و العـــين و ليســـت فـــي حاجـــة لدلالـــة
و لـــئن ســـاء حالنـــا فكفانـــا أنكـــم عنـــدنا بأحســـن حالـــة
غيـــر أن الطريـــق طالـــت علينـــا و علـــيكم... فمـــا لنـــا و الإطالـــة
أجـــلاء عـــن الـــبلاد تريـــدو نَ فنجلـــو أم محقنـــا و الإزالـــة ؟![1]

بعد هذه الأبيات يقف الشاعر ساخراً ومتحدياً، و قد "استبطأ إبراهيم اصطبار الإنجليز على تهويد فلسطين و تسليمها لقمة سائغة لشذاذ الآفاق عملا بوعد (بلفور) ! و رأى أن الطريق قد طال... و أن الوعد قد استطال"[2]، و نلحظ هنا الطابع السوداوي القاتم لدى طوقان، حيث يُحصيها الدكتورعبد الله إسماعيل في عوامل عدة أثرت على نفسية الشاعر في شعره، كان من أهمها نفسية الشاعر الرومنسية والحزينة، وعصبيته المعهودة التي كانت تثور لأتفه الأسباب، ومرضه العضال، وحال البلاد الذي كان لا يبعث على التفاؤل وما كان يعلمه من إصرار المحتلين الإنجليز والمهاجرين اليهود على تنفيذ مخططاتهم.[3] هذه المخططات التي تحققت فيما بعد، وعملت على إجلاء شعب بأكمله إلى شتى بقاع الأرض، وانتزاع ملكيته للأرض التي ترعرع فيها منذ دهور خلت، تمثلت بالإزالة التي عملت على تهميش الإنسان الفلسطيني في العالم من خلال تهجيره من أرضه من ناحية، ومحاولة طمس الهوية الوطنية وأهمها إخفاء اسم فلسطين عن الخارطة العالمية من ناحية أخرى.

---

[1] طوقان، إبراهيم: الديوان ، ص76.
[2] الملثم، البدوي: الوطن في شعر إبراهيم طوقان، المكتبة الأهلية، 1960، ص 87.
[3] ينظر: إسماعيل، عبد الله: إبراهيم طوقان في ذكراه الثانية و الأربعين، قراءة في شعره الوطني. مجلة الفجر الأدبي، ع 36/35، آب/ أيلول 1983، ص 39.

وتتضمن القصيدة السابقة شكلاً من أشكال السخرية والمفارقة، ألا وهو المعاكسة اللفظية أو عكس الدلالة، وهي ما تسمى بالمفارقة اللفظية و"هي شكل من أشكال القول، يساق فيه معنى ما، في حين يقصد منه معنى آخر، غالباً ما يكون مخالفاً للمعنى السطحي الظاهر.. ويجتمع فيها أكثر من عنصر، فهي تشتمل على عنصر يتعلق بالمغزى هو مقصد القائل.. وتشتمل كذلك على عنصر لغوي بلاغي هو عملية عكس الدلالة"[1].

وفي الجدول الآتي سأتناول الثنائيات التي أوردتها القصيدة من خلال بيان المعنى السطحي الظاهرغير المقصود وإبراز المعنى المقصود غير الظاهر:

المعنى السطحي الظاهر غير المقصود	المعنى المقصود غير الظاهر
العدالة	الظلم
البسالة	الحقارة
صديقا وفيا	عدوا مخادعا
لطفكم	خبثكم
أفضالكم	مؤامراتكم

وفيما تقدم في الجدول، نلحظ المفارقة والسخرية الواضحة من خلال المفردات التي تناولها الشاعر في قصيدته، ولكنها سخرية توشحت بالمرارة التي تعتصر قلبه مما يجري على الساحة الفلسطينية، وكأن طوقان أراد أن يُبطّن كلماته بالمفارقة اللفظية ويوجهها لشتى الأطراف على الصعيد السياسي، وقد تخرج هذه المفارقة عن نطاقها العبثي لتوصل رسالة توعية إلى بني جلدته وتحذيرهم من خطر سياسة الانتداب وأعوانه. "ويمتد الموقف ذاته من "الآخر" و لا يزال ممثلا بحكومة الانتداب، فاللغة الساخرة ما زالت هي النمط الذي يسود الخطاب، ولا تكاد تتجاوز هذا الحد إلا في مواقف محدودة، أما "الآخر" اليهودي فلا يكاد يشكل في هذه المرحلة كيانا مستقلا"[2]. وقد انصبت سخرية إبراهيم طوقان و تهكمه في معظمها على الجانب السياسي، أما الدعابة فجاءت جُلها في جانب النقد الاجتماعي أو في الظرف بينه وبين أصدقائه. أما مصدر سخرية إبراهيم فكان نابعا من الواقع الموضوعي، لأن فلسطين كانت تعيش تغيرات سياسية واجتماعية، فمن انتداب إلى هجرة إلى أحزاب، إلى ثورات، وقد استطاع إبراهيم استيعاب كل هذه الحوادث والاضطرابات والتناقضات مع أنه لم ينضم إلى حزب كما صرح بأن قلبه

[1] قاسم، سيزا: المفارقة في القص العربي المعاصر، مجلة فصول، المجلد الثاني، ع2، 1982، ص144.
[2] أبو خشان، عبد الكريم: الأنا و الآخر عند إبراهيم طوقان، مجلة الشعراء، صيف 1998، ص133.

لبلاده لا للحزب و لا للزعيم، و قد لجأ إلى السخرية لما فيها من قوة التأثير في استثارة العقول، وقد استخدمها بلغة محكية بسيطة.[1]

يقول الشاعر أحمد دحبور بأن الخطاب الوطني في شعر إبراهيم جاء على ثلاثة محاور:

الأول: يتصل بالمساجلة ورد منطق الأعداء بمنطق الشعب القائم على الحق ومطلب الحرية.

الثاني: يأخذ طابع السخرية المرة من واقع الاحتلال وانحياز بريطانيا إلى مضمون وعد بلفور.

الثالث: يدور حول العامل المحرك في الحياة السياسية، مقاومة ومناورات، وإذا كان الشعب هو هذا العامل، وهو كذلك، فإنه موزع بين الفدائي و الشهيد والقوى الوطنية من جهة، والوجيه الدعي الناعق بالقطيعة والاختلاف من جهة ثانية.[2].

ما زال طوقان مستمراً في تطلعه المستقبلي ليصف لنا في قصيدته (1000) ضخامة الهجرة اليهودية إلى البلاد وبمساندة الشبح الأكبر الذي مهد لها أمام مرأى العالم العربي و الإسلامي:

(البحر الطويل)

أرى عـــددا فـــي الشـــؤم لا كثلاثـــة ... وعشـر، و لكـن فاقـه فـي المصـائب
هو (الألف) .. لم تعرف فلسطين ضربة ... أشـد وأنكـى منـه يومـا لضـارب
يهـاجر ألـف.. ثـم ألـف مهربـا.. ... ويـدخل ألـف سـائحا غيـر آيـب..
و ألـف (جـواز) ثـم ألـف و سـيلة ... لتسـهيل مـا يلقونـه مـن مصـاعب
و فـي البحـر آلاف.. كـأن عبابـه ... وأمواجـه مشـحونة بالمراكـب
بنـي وطنـي هـل يقظـة بعـد رقـدة ... وهـل مـن شـعاع بـين تلـك الغياهـب
فـو الله مـا أدري، ولليـأس هبّـة ... أنـادي (أمينـا) أم أهيـب (براغـب)[3]

عند الحديث عن الهجرة اليهودية التي اجتاحت فلسطين، لا بد من معرفة جزء من الأحداث المتعاقبة في البلاد آنذاك وتأثيرها على عطاء الشاعر السياسي، فإبراهيم طوقان نشأ بين عهدين مظلمين تمثل الأول بالاستعمار التركي، بينما الثاني الذي حضن الهجرة اليهودية إلى فلسطين تمثل بالانتداب البريطاني [4]، وقد ترتبت نتائج سلبية على هذه الهجرة ومن هذه النتائج: تواصل تدفق الشعوب من مُختلف بقاع

---

[1] ينظر: الطريفي، يوسف عطا: إبراهيم طوقان حياته و شعر، ص 137.
[2] ينظر: دحبور، أحمد: إبراهيم طوقان في مئوية ميلاده: هل الشعر أسلوب حياة، مجلة الكرمل، ع 85، خريف 2005، ص 219.
[3] طوقان، إبراهيم: الديوان ، ص 79.
[4] ينظر: المعلوف، رفيق: شعراء كتبوا بدم القلب، مجلة العربي، ع 545، أبريل 2004، ص 87.

العالم إلى فلسطين حيث أصبحت فلسطين كالجسد المنهك الذي أصيب بداء السرطان المتفشي.[1] وقد كُتبت القصيدة السابقة بدماء القلب ومن رحم الألم الوطني الذي ألمّ بالشاعر، و التي "عدّد فيها (ألف) ضربة أصابت فلسطين و(ألف ألف) مهاجر مهرّب غزاها، و(ألف) سائح بلغها سرا و(ألفا) وطأها جهرا ولم يبارحها، و(ألف) جواز و(ألف ألف) جواز مزوّر، أباح لشذاذ الآفاق غزو فلسطين والاستقرار فيها توطئة لتهويدها، سواء أرضي بذلك أهلها الشرعيون أم أبوه"[2]. وفي ظل هذا الخضم المتصاعد، لا بد من التعرف إلى شخصية إبراهيم الإنسان لا الشاعر، وبكونه فرداً من أفراد المجتمع المحلي المهدد بغطرسة ظالمة تمثلت بلجوء يهود العالم أجمع إلى فلسطين، فقد عاش طوقان في فترة المخاض التي هيأت لضياع الوطن قبل قيام النكبة، و قد تنبه لمسألة السقوط والهجرة بشكل واضح.[3]. أيضا لا ننسى أن فترة الخصب في حياة الشاعر تراوحت بين عامي (1920-1941)، فقد تميزت هذه الفترة بوجود المفارقات والتناقضات التي تمثلت بالاحتلال وممارساته والقيادات الهابطة والتي انتهت بالهجرة اليهودية واحتلال الأرض.[4].

ندرك في القصيدة السابقة عمق المعاني التي تناولها الشاعر في نصه الشعري، وهذه المعاني ظهرت على هيئة القالب الصرفي ذي الدلالة المؤكدة بأهمية المعنى واحتوائه لمضمون الحدث، فالشاعر يدعم قصيدته باسم الفاعل، ومثال ذلك: (ضارب، سائح، آيب)، و كل مفردة من المفردات السابقة جاءت مصدقة لوقع الحدث في فلسطين، أي غير القابل لتغيير القرار والرجوع بخطوة بسيطة نحو الخلف، وهذا إن دلّ على شيء فعلى تواطؤ الانتداب البريطاني مع الصهيونية، وتشجيع الهجرة اليهودية إلى فلسطين بقرارات مصيرية ثابتة لا تراجع فيها.

حين نتكلم عن أحداث فلسطين، يجب أن لا ننسى أخوات فلسطين في الجوار، وذلك تمثل في شعر طوقان من خلال علاقته ببعض الشعراء في ذلك العصر، عصر النبوغ والفكر واحترام الآخر، ومن الشعراء الذين تغنت الشعوب بشعرهم وتغنى إبراهيم بشعرهم أيضا، الشاعر القدير أحمد شوقي، حيث حث إبراهيم الشاعر شوقي على قول الشعر فيما يخص قضية فلسطين للفت أنظار العرب إليها والحذر كل الحذر من أطماع الغرباء الذين يكيدون الويلات لفلسطين وجاراتها من الدول العربية مثل مصر والأردن، فها هو طوقان ينظم قصيدته (حطين) التي كان من المقرر أن يلقيها في مهرجان خاص لاستقبال شوقي عام 1928 ولكن الزيارة لم تتم، يقول إبراهيم محذرا:

---

[1] ينظر: الملثم، البدوي: إبراهيم طوقان في وطنياته و وجدانيات، ص 70.
[2] المرجع السابق، ص 70.
[3] ينظر: عوض، أحمد رفيق: العالم الداخلي للشاعر، مجلة الشعراء، ع1، صيف 1998، ص 91.
[4] ينظر: طه، المتوكل: الساخر و الجسد، دار اللوتس، عمّان، 1992، ط2، ص 281.

(مجزوء الكامل)

ذهـــــب الـــــذين عهـــــدتهم ... لا يصـــــبرون علـــــى الهـــــوانِ
فـــــي مصـــــر يطمـــــعُ أشـــــعبٌ ... وهنـــــا تبـــــدى أشـــــعبانِ
وهنـــــا التخـــــاذل فـــــي الشـــــدا ... ئـــــد والتشـــــاؤم و التـــــواني
والـــــنفس يقتـــــل عزمهـــــا ... طـــــول التعلـــــل بالأمـــــاني[1]

الأبيات السابقة رسالة موجزة من إبراهيم لشوقي، بضرورة الحذر والاحتياط من مخالب الذئب البريطاني الذي يُخفي ألاعيبه عن الحضور إلى الوقت الذي سيغتنم فيه الفرصة للهجوم على الضحية وتحقيق مبتغاه الذي يطمح إليه، فالنص الشعري حمل رسالة خاصة إلى شوقي حملت في مضمونها رسائل عامة إلى كل من يهمه أمر القضية، فالرسالة الخاصة عندما تتحول إلى عامة ينبغي من الجميع أن يستوعبها ويتفنن في الإجابة والرد عليها، وهدف طوقان من ورائها إلى البحث الدقيق عن النفس الأبية الغيورة على ملكيتها الخاصة المتمثلة بالأرض. و لكن أمير الشعراء لا يستجيب لهذا الطلب "فيدرك طوقان أن المسؤولية تقع أول ما تقع على أهل البلاد، فإن لم يهتموا هم بمواجهة ما عليهم من حيف، فلن يقوم بذلك أحد سواهم"[2]، و يتخلل القصيدة أيضا نوع من العتاب من جانب طوقان لأحمد شوقي بسبب عدم مشاركته أهل فلسطين نكبتهم، وعلى قلة شعره بأحداث فلسطين، مع أنه لم يبخل بقصائده على غيرها مثل نكبة دمشق[3].

يأتي إبراهيم، وبأسلوبه الفني المبدع، على استخدام (الموتيف) في قصائده، والموتيف هو "موقف أو حدث قصصي أو فكرة أو صورة نمطية أو عبارة لغوية أو نمط معين من الشخصية مما نجده ماثلاً ومتكرراً في شتى الأعمال الأدبية والحكايات الشعبية والأساطير، ووظيفته أن يثير حالة قد تؤدي إلى التعرف والكشف أو يكون شاهداً أو رمزاً على وضع معين"[4].ففي القصيدة السابقة يذكر اسم (أشعب)[5]، ذلك الرجل الجشع الذي لا يشبع ويتعدى على حقوق غيره من الناس، وكأن له من اسمه نصيب، فأطماعه متشعبة وممتدة في أكثر من اتجاه. وما يبرر هذا الموتيف، هو وعي إبراهيم وإدراكه بأن العدو ليس طرفاً واحداً فقط، وإنما يشمل الانتداب والاحتلال، وأعداء الجبهة الداخلية من زعامة وسماسرة و صحافة

[1] طوقان، إبراهيم، الديوان، ص70.
[2] أبو خشان، عبد الكريم: الأنا و الآخر عند إبراهيم طوقان، مجلة الشعراء، صيف 1998، ص129.
[3] ينظر: الطريفي، يوسف عطا: إبراهيم طوقان حياته و شعره، المكتبة الأهلية للنشر و التوزيع، عمّان، ط1، ص 88.
[4] Arom.wikipedia.org
[5] **أشعب** ، هو شخصية فكاهية عرف بالطمع وكان له طرائف كثيرة ما زالت تروى في القصص الشعبية.

مأجورة، فالاحتلال والانتداب هما وجهان لعملة واحدة شبههما الشاعر بأشعب الشره الذي لا يشبع والذي لا كرامة له. [1]

يستمر طوقان بإلقاء قنابله الموقوتة المتمثلة بقصائده المتفجرة التي لا يتنبأ فيها بخير، وكأنه امرؤ قيس هذا الزمان، جاء ليقف على الأطلال ليبكي الأحباب والأهل قبل أن تقع الكارثة المتوقعة، يقول شاعرنا في قصيدة (فلسطين مهد الشقاء):

(مجزوء الكامل)

ليســـــت فلســـــطين الرخـــــيْ[2] يّـــــة غيـــــر مهـــــد للشـــــقاء

عُرضـــــت لكـــــم خلـــــف الزجـــــا جِ تمـــــيس فـــــي حلـــــل البهـــــاء

هيهـــــــات ذلـــــــك إن فـــــــي بيـــــع الثـــــرى فقـــــد الثـــــراء

فيـــــه الرحيـــــل عـــــن الربـــــو عِ غـــــداً إلـــــى وادي الفنـــــاء

فـــــاليوم أمـــــرح كاســـــيا وغـــــدا سَـــــأَنْبَذُ بـــــالعراء[3]

وللأسف الشديد تحققت تلك النبوءة التي تنبأ بها شاعرنا وتم الرحيل عن الوطن، وأصبح الشعب الفلسطيني يتخبط في شتى السبل و يقصد طرق التيه والضياع في شتى بلاد العالم، وكأن الطرق فُتحت في وجهه لكي تُشغله عن طريقه الذي خرج منه، وتعده باللاعودة إلى الجنة المفقودة. وتُعد الأبيات السابقة شكلاً من أشكال السخرية و المفارقة عند إبراهيم، وتمثل ذلك بالمقابلة، "فغالبا ما تتم السخرية، وتتم المفارقة بأسلوب المقابلة. والمقابلة أن يعطي (الصورة) كما هي بتناقضاتها ثم يأتي (بالمثال) فترى بمقابلتهما ما في الوضع من إثارة للعقل والعاطفة معاً، ومن خلال هذا الترادف أو التناقض (الطباق) تتجلى المفارقة أو تتحقق السخرية"[4]، وفيما يأتي توضيح لذلك من الجدول الآتي:

الكلمـــة	**ضـــدها**
بيـــع	**فقـــد**
الثـــرى	**الثـــراء**
الربـــــــوع/ تمثـــــــل الاســـــــتقرار فـــــــي الـــــــبلاد	**وادي الفناء/ عدم الاستقرار والهجرة من البلاد**
اليـــــوم/ يحمـــــل فـــــي جعبتـــــه الحـــــذر والتنبيـــــه	**غـــدا/ إذا مـــا تحقـــق فـــلا نفـــع حينئـــذ للنـــدم**
أمـــرح/ فـــوق أرضـــي و وطنـــي حيـــث ملكيـــة الأرض تخصـــني	**أنبذ/ أتشرد في شتى بلاد العالم وحرماني من أرضي،**

[1] طه، المتوكل، الساخر والجسد، ص182، 183.
[2] الرخية:الخصبة
[3] طوقان،إبراهيم، الديوان، ص57.
[4] طه، المتوكل: الساخر و الجسد، ص 108.

	فملكيـــة الأرض لا تخصـــني، و هنـــاك بـــديل عنـــي
كاســــــــــــــــــــــــــــــــــــيا	العـــــــــــــــــــــــــــــــــــــــراء

في قصيدة (رثاء أبي المكارم) التي وجهها طوقان للشاعر عبد المحسن الكاظمي معانٍ توحي بالحسرة وضيق الحال الذي بلغ الأفق، يقول الشاعر:

(البحر البسيط)

هـــل فـــي فلســطين بعـــد البـــؤس مـــن دعـــة أم للزمـــــان ابتســـــام بعـــــد تقطيـــــب

كـــم حقـــق العـــزم و الإعجـــال مـــن أمـــلٍ و خــــاب قصـــد بإمهـــال و تقليـــب[1]

يتمنى الشاعر أن يسود الصفاء والرخاء في بلاده بعدما حل فيها البؤس وقلة الحيلة، وفي الأبيات السابقة يزودنا بكلمات متضادة دالة على الطباق في نصه الشعري، إضافة إلى كلمات مترادفة جاءت في صلب المعنى.

نستنتج مما سبق أن حكومة الانتداب البريطاني والصهيونية كان لهما دورٌ فاعلٌ في ضياع أرض فلسطين وتشريد أهلها، وتبين ذلك من خلال تحذير الشاعر منهما في أكثر من قصيدة، ولعل الأعمال التي كانت تقوم بها حكومة الانتداب من جلب اليهود إلى فلسطين وإقامتهم بها وتعاونهم مع الحركة الصهيونية في شتى المجالات، كان له الأثر الأكبر في نمو الشعور التشاؤمي اللاإرادي في العقول الواعية فيما ستؤول إليه قضية بلادهم، فتنبؤ الشاعر في هذا المبحث جاء في اتجاهين اثنين؛ اتجاه القوي المتغطرس صاحب السلطة الذي سيسيطر على البلاد وهذا ما تحقق بالفعل من خلال اغتصابهم للبلاد، واتجاه الضعيف المتهاون صاحب الحق الذي سيُهجّر عن بلاده وقد تحقق ذلك فعلاً بتهجير الفلسطينيين من أرضهم عام 1948م، وكأن لسان الحال يقول أن ما أُخذ بالقوة لا يُسترد إلا بالقوة.

[1] طوقان، إبراهيم، الديوان، 169.

ثانياَ: قلة الوعي الشعبي

يقولون إنه إذا أردت أن تقضي على أمة فيجب أن تمحو لغتها، فاللغة هي الحياة والتراث وعبق الأرض الطاهر، ولولا اللغة لما أصبح للشعب كيان مستقل بين شعوب العالم، ولغة الفلاح الفلسطيني كانت ترانيم حب متدفقة نحو أرضه التي ضمته كأم حنون، ولكن عواصف الغدر والهلاك بثت سمومها التي ما لبثت أن فرقت بين الأم ووليدها عبر مخططاتها الفكرية قبل العسكرية، حيث "ركدت الحركة الوطنية في فلسطين وران عليها الوجوم وسادها صمت أهل الكهف، وارتفعت أسهم السماسرة والدجالين ورجحت موازين دعاة الوطنية الزائفة"[1]. يقول شاعرنا ناصحاً أبناء شعبه ورافعاً شعار الشجاعة عالياً في قصيدته (تفاؤل وأمل) والتي ألقاها حين كان عمره 23 عاما حين أنشدها على الجمهور في نابلس وكان ذلك عام 1928م:

(مجزوء الكامل)

كفكـــــف دموعـــك لـــــيس ينْـــــ فعـــــكَ البكـــــاء ولا العويـــــل
و انهـــــض و لا تشـــــكُ الزمـــــا ن فمـــــا شـــــكا إلا الكســـــول
و اســـــلك بهمتـــــك السبيـــــ لَ ولا تقـــــل كيـــــفَ الســـــبيل
مـــــا ضـــــلّ ذو أمـــــل ســـــعى يومـــــاَ وحكمتـــــه الـــــدليل
كـــــلا، ولا خـــــابَ امـــــرؤ يومـــــاَ ومقصـــــده نبيـــــل[2]

تتجسد من خلال عنوان القصيدة والنص الشعري معاني التفاؤل والأمل ودبّ الروح من جديد في قلوب أتعبها الوهم، فعلى الرغم من الواقع التشاؤمي، ظل شاعرنا يرفع راية الأمل التي تخفق عاليا ليراها أبناء شعبه ويتبعوا خطاه ونهجه التفاؤلي، وقد استغل إبراهيم منبره الإذاعي ليوجه شعبه من خلاله وليبدع في قصائده التي كانت كالسكاكين في قلب المستعمر وأعوانه، "فقد عُيّن إبراهيم مراقبا للقسم العربي بإذاعة فلسطين سنة 1936، ولكنه رغم تعنت سلطة الانتداب البريطاني حوّل برامج الإذاعة إلى جذوة متقدة من الكفاح والنضال والمقاومة ضد التخطيط الشرير لسلب أرض فلسطين، وظل رغم أمراضه التي كانت تنقله من عملية جراحية إلى أخرى يبدع قصائده النارية المفعمة بروح النضال و القوة للحفاظ على أرض فلسطين عربية"[3]. فبالرغم من رؤيته السوداوية للمستقبل المُظلم، لم يكن إبراهيم متشائماً بل امتاز بالصلابة وبث الأمل في النفوس، من أجل الوقوف في وجه العدوان الزاحف، لأن

[1] الملثم، البدوي: الوطن في شعر إبراهيم طوقان، ص 32.
[2] طوقان، إبراهيم: الديوان، ص 46.
[3] رضوان، محمد: الشقيقان طوقان، الشعر يقاوم جبروت الانتقام، مجلة الهلال، ع 5، مايو 2014، ص 123.

الخطوة القادمة تتطلب من الشعب المزيد من العمل والوضوح في التفكير ولا مجال للشكوى ولا البكاء.[1].

فقد كان إبراهيم أشبه بالمحرّض الذي يرجو من أبناء شعبه امتثال أمره والاستجابة لما يحمله شعره من رسالة توعية ومقاصد نبيلة فيها مصلحة الوطن والمواطن، فقد دعا الشباب العربي إلى الكفاح والمقاومة من أجل تحرير الوطن العربي، وبخاصة فلسطين، وضرورة التصدي للصهيونية والهجرة اليهودية.[2] وقد "أكسبه شعره الناري الرصين، المعبر تعبيراً لاذعاً عن أعمق مشاعر الفلسطينيين أينما كانوا شهرة عظيمة في العشرينيات و الثلاثينيات. و كانت موهبته الشعرية قد بدأت تتألق في أثناء دراسته في الجامعة الأمريكية في بيروت، حيث كان يلتقي بشعراء آخرين، ويشارك في الحياة الأدبية النشطة في الجامعة. وعندما عاد إلى فلسطين، عاد واثقاً تماماً من دوره كشاعر، يحمل نفساً مسلحةً بقوة الشعور أن عليها مسؤولية إيقاظ الشعب وتبصيره بمعوقاته"[3].

يتضح مما تقدم أن الواقع الذي عاشه إبراهيم و معاصريه كان تشاؤميا، "لكنه برغم الغيوم الداكنة التي كانت تحتشد على امتداد سماء هذا الوطن، والعواصف التي كانت تحيط به من كل جانب، فإنَّ نبضة التفاؤل والأمل لم تنسلخ أو حتى تتجزأ على كثير من قصائده وبنات أفكاره"[4]. ربما لأن مفهوم الوطن لدى الشاعر تعدى فكرة الانتماء إلى المكان والإنسان من أجل خلق مفهوم يفرض عليه التصالح مع الواقع، وبالتالي يدرك بحسه الصادق وفطنته الجريئة أن الخلل يكمن في الصف الوطني.[5]

من المعاني الدالة على سمتي التفاؤل والأمل في الأبيات السابقة استخدام صيغة فعل الأمر أو النهي في الأفعال: كفكف، انهض، لا تشكُ، اسلك، لا تقل... فمن خلال هذه الأفعال تتبيّن لنا حماسة الشاعر بأسلوب هجومي عفوي يحمل معاني الإيجابية بين ثناياه، أيضا شملت الأبيات على اللافتة الأدبية التي لفتت انتباه العامة والمثقفين وأصبحوا يتداولونها في حياتهم اليومية في أثناء الحديث، واللافتة عند إبراهيم تأتي على أشكال عدة:

الأول: قد يكون قصيدة بكاملها.

الثاني: قد يكون أجزاء من قصيدة.

---

[1] ينظر:شراب، محمد حسن: شعراء فلسطين في العصر الحديث صور الماضي، و الحاضر، و استشراف المستقبل، ط1، الاهلية للنشر و التوزيع، عمّان، 2006، ص 23.

[2] ينظر:المعلوف، رفيق: شعراء كتبوا بدم القلب، مجلة العربي، أبريل 2004، العدد 545، ص 87، 88.

[3] الجيوسي، سلمى خضرا: مقدمة أنثولوجيا، الأدب الفلسطيني الحديث، مطبعة جامعة كولومبيا، نيويورك، 1992، ص 13.

[4] برزق، مروان محمد: الشاعر إبراهيم طوقان يملك نبوءة التشرد و النكبة، مجلة الموقف العربي، ع73، 1984، ص 140.

[5] ينظر:أبو خشان، عبد الكريم: الأنا و الآخر عند إبراهيم طوقان، مجلة الشعراء، تصدر عن بيت الشعر الفلسطيني، صيف 1998، ص 130.

الثالث: قد يكون بيتاً.

الرابع: قد يكون نصف بيت (شطرا)[1]

و اللافتة الأدبية في هذا السياق كانت بيتا شعريا تمثل في البيت الأول من القصيدة:

(مجزوء الكامل)

كفكـــــف دموعـــــك لـــــيس ينْـــــ فعـــــك البكـــــاء ولا العويـــــل[2]

يستمر إبراهيم في إلقاء توجيهاته لأبناء جلدته في القصيدة ذاتها، و يخرج من دائرة إلقاء الأوامر إلى دائرة اللوم والصراحة وبيان دورهم الحقيقي:

(مجزوء الكامل)

كـــــم قلـــــت "أمـــــراض الـــــبلا دِ" و أنـــــت مـــــن أمراضـــــها

و الشـــــؤم علتهـــــا فهـــــل فتّشـــــت عـــــن أعراضـــــها

يـــــا مـــــن حملـــــت الفـــــأس تهـــــ دِمهـــــا علـــــى أنقاضـــــها

أقعـــــد فمـــــا أنـــــت الـــــذي يســـــعى إلـــــى إنهاضـــــها

و انظـــــر بعينيـــــك الـــــذئا بَ تعـــــبّ فـــــي أحواضـــــها[3]

عاش إبراهيم في فترة كثرت فيها الأمراض الطاعنة في خاصرة البلاد، إضافة إلى الانتداب البريطاني، ومطامع الصهيونية، والهجرة اللاشرعية لليهود، ظهر مرض آخر متفشٍ كالسرطان في كل زاوية من أرض الوطن، وهو الخلل في الصف الوطني وعدم وعيه بما يدور حوله من ألاعيب، ففي الفترة الواقعة بين 1920-1941 ، كانت الأمة تعاني من انكسار سياسي وثقافي أمام قوة المُحتل، وهذا ما أدى بدوره إلى انكسار رؤية إبراهيم، حيث تعرضت الأرض العربية للاحتلال الكامل من محيطها إلى

[1] ينظر:طه، المتوكل: الساخر و الجسد، ص 169.
[2] طوقان، إبراهيم: الـديوان ، ص 46.
[3] المصدر السابق، ص 47.

خليجها [1]. إلا أن هذا الاحتلال لم يطل أرض اليمن السعيد. و في الأبيات السابقة يحاول طوقان أن "يقرّع من يشكون دون فعل، بل يقومون بإحباط المستعدين للعمل"[2].

ما يلفت انتباه القارئ في الأبيات السابقة استخدام الشاعر عبارة "أمراض البلاد"، لمَ لم يقل شاعرنا ذو الحس التنبؤي كلمتي (أسقام وأدواء) مثلا، فكلاهما تدلان على معنى المرض؟! لقد كان إبراهيم يمتلك بصيرة متفتحة حتى في انتقاء الكلمات التي تنتمي إلى عائلة المعاني المتقاربة، فقد وظّف كلمة أمراض؛ لأن المرض يشمل الإنسان و البعير أيضا[3]، أما الداء أدواء فهو اسم جامع لكل مرض وعيب في الرجال ظاهر أو باطن[4]، وأما السّقام و السُّقام و السِّقَم وجمعها أسقام فتدل أيضا على المرض المتعلق بالأشخاص[5]، و كأن الشاعر أراد أن يوصل رسالة إلى شباب الأمة بأن الأمراض التي تلم بنا هي أمراض خارج النطاق الإنساني، كالانتداب و الهجرة اليهودية مثلا، وما شهدناه من مجازر بعد ضياع فلسطين ما هو إلا دليل واضح على وحشية السياسة الممنهجة التي لا تمت للقيم البشرية بشيء، فإبراهيم يريد من أبناء شعبه أن يعوا المرض الذي أصابهم وأن يتلمسوا الشفاء منه قبل فوات الأوان.

بعد الأوامر التي سنّها إبراهيم وكأنها قوانين ينبغي على الشعب الالتزام بها والعمل على تنفيذها (كفكف، انهض، اسلك، لا تشكُ، لا تقل)، جاء ليوضح طبيعة المرض الذي يأمل في علاجه؛ لأنه إذا ما تفشى من القوة الكبرى سينتهي أمر البلاد إلى الضياع ولا ندم حينها على ما سوف نفارقه من بشر أو حجر، في الأبيات الآتية يبرر طوقان سر هذه الأوامر وضرورة الالتزام بها، لأن القول كي يتحقق ينبغي اقترانه بالفعل الحازم الذي يُعلي راية الوطن بأيدٍ نبيلة لا ترضى أن تخون، حيث يخاطب في هذه القصيدة الزعيم الذي يقول و لا يفعل:

(مجزوء الكامل)

وطـــــن يبـــــاع و يشـــــترى و تصـــيح: "فليحـــيَ الـــوطن"؟!
لـــــو كنـــــت تبغـــــي خيـــــره لبـــــذلت مـــــن دمـــــك الـــــثمن
و لقمـــــتَ تضـــــمد جرحـــــه لـــــو كنـــــت مـــــن أهـــــل الفطـــــن[6]

[1] ينظر:طه، المتوكل: الساخر و الجسد، ص 281، 282.
[2] الطريفي، يوسف عطا: إبراهيم طوقان، حياته و شعره، ص 96.
[3] ينظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة مرض، ج 7، دار صادر، بيروت، ص 231.
[4] ينظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة دوأ، ج 1، ص 79.
[5] ينظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة سقم، ج 12، ص 288.
[6] طوقان، إبراهيم: الديوان، ص 47.

هنا يصرح إبراهيم عن سر تلك الأوامر، ويبرز الأسباب الحقيقية التي ينبغي على ابن البلاد أن يعيها، فالوطن أصبح لعبةً بين أيدي الطامعين، فبعد أن يوضح إبراهيم سبب الغفلة يأتي بالحلول اللازمة للحد من ضياع الأرض والإنسان، وهو الحثُّ على المقاومة والسعي لإصلاح ما سُرق منه واستعادته، ففي ذلك "التفات متدبر (للأنا) الجمعية و مواجهة صريحة معها، فهو في الوقت الذي يقسو عليها، ويلهب ظهرها بسياط اللوم والتقريع، ولا يتبرأ منها أو يفارقها مفارقة اليائس من إصلاحها، بل يفتح لها مجال النكوص عن غيّها، ومراجعة النفس وذلك من خلال الإشارة للنموذج الصحيح"[1].

يبرز في البيت الأول من النص الشعري السابق نوع من أنواع المفارقات وهو إيقاظ الواهم أو المفارقة الدرامية، "ويمكن تعريف هذا النوع من المفارقة بأنه الموقف الذي يتولد من سلوك إنسان ما سلوكا معينا وهو جاهل تماما لكل ملابسات الموقف وحقيقته، بخاصة عندما يكون هذا السلوك مخالفا كل المخالفة للملابسات تماما"[2]، أيضا نلمح في البيت ذاته تناقضاً بين الشطر الأول و الثاني، فالشطر الأول يتحدث عن الوطن الذي أضحى لعبة تُرمى هنا وهناك في حين أن ابن البلاد ماضٍ في سبات عميق وإذا ما أفاق نادى باسم الوطن، وهذا ما جاء به الشطر الثاني، واللام في (فليحيَ) هي "لام الأمر مكسورة، إلا إذا وقعت بعد الواو والفاء فالأكثر تسكينها"[3].

لو تمعنا في الأبيات السابقة فسنلاحظ استخدام الشاعر لأداة الشرط غير الجازمة (لو) في سياق حديثه عن الوطن، وحثه شباب البلاد على مقاومة العدو، وعدم الركون إلى حياة شعارها الذل والهوان.

تنفرج سريرة الشاعر بعدما قضى شغله الشاغل في إلقاء النصائح والتحريض ضد المحتل الذي يفتح فاهه على مصراعيه لأكل الأخضر و اليابس، و"تبرز جهود مجموعة من الوطنيين الذين تجاوزوا مصالحهم الفردية واجتمعوا في القدس في (مؤتمر عربي عام) عام 1928م"[4]:

(مجزوء الكامل)

الله ثـــــــــم الله مـــــــــا ... أحلـــــى التضـــــامن و الوفاقـــــا

بوركـــــــت مـــــــؤتمرا تألّـــــــ ... ـــفَ لا نـــــزاع و لا شـــــقاقا

كـــــم مـــــن فـــــؤاد راق فيـــــ ... ـــهِ و لـــم يكـــن مـــن قبـــل راقـــا

---

[1] أبو خشان، عبد الكريم: الأنا و الآخر عند إبراهيم طوقان، ص 130.
[2] قاسم، سيزا: المفارقة في القص العربي المعاصر، مجلة فصول، ص 151.
[3] الغلاييني، مصطفى: جامع الدروس العربية، ط 36، المكتبة العصرية، صيدا-بيروت، 1999، ص 185.
[4] أبو خشان، عبد الكريم: الأنا و الآخر عند إبراهيم طوقان، ص 130.

اليـــــــوم يشـــــــرب مـــــــوطني كـــــأس الهنـــــاء لكـــــم دهاقـــــا[1]

يُعد هذا المقطع الشعري من المقاطع الشعرية النادرة التي خلت من مظاهر الحبور وانفراج الأسارير عند طوقان[2]، ويظهر من خلال النص السابق مزيجٌ من القالب التفاؤلي الذي ساد الأفق بالتوفيق والسداد لرجال المؤتمر، فقد استخدم طوقان كلمات الترادف الإيجابية، وذلك يدل على تفاؤل الشاعر بهذه الخطوة من الوفاق والحس الوطني الذي بدأ يتولد عنه الوعي والخوف على مصلحة الوطن و المواطن، ومن هذه الكلمات (التضامن-الوفاقا)، (لا نزاع-لاشقاقا). أيضا غالبا ما نرى إبراهيم يستخدم التناص في شعره من القرآن الكريم، "فالمصدر الديني هو الأكثر حضوراً وظهوراً و تأثيراً في ديوان إبراهيم و قصائده، تلك العلاقة العضوية بين إبراهيم و المصادر الدينية وأهمها القرآن الكريم و السنة النبوية الشريفة والعهدان القديم و الجديد"[3]. ونلحظ التناص القرآني في الشطر الثاني من البيت الأخير (كأس الهناء لكم دهاقا) حيث تضمن تناصا قرآنيا من سورة النبأ، يقول الله تعالى: **{وَكَأْسًا دِهَاقًا}[النبأ:34].**[4]

كان شاعرنا يستبشر خيراً حينما يكون الوِفاق حاصلاً بين الأوساط الشعبية، بعيداً عن المزايدات الحزبية، وقد كان له دور واضح في إثارة النخوة في نفوس الزعماء من خلال مقطوعاته الشعرية التي كان ينشرها في الجرائد [5].

يقفز بنا الشاعر إلى الهدف الذي لطالما دعا إليه، فقد كان المخطط والناصح والمُحرض الغيور على ثرى بلاده الطاهر، وها هو ذا قد تحقق الحلم وجلبت الأماني عناقيدها الوردية المتفتحة بالأمل والغد المنشود:

(مجزوء الكامل)

حـــــيِّ الشـــــباب و قـــــل ســـــلا مـــــاً إنكـــــم أمـــــل الغـــــد
صـــــــحّت عـــــــزائمكم علـــــــى دفـــــــع الأثـــــــيم المعتـــــــدي
و الله مـــــــدّ لكـــــــم يـــــــدا تعلـــــو علـــــى أقـــــوى يـــــد
وطنـــــــي أزف لـــــــك الشـــــــبا بَ كأنـــــــه الزهـــــــر النـــــــدي

---

[1] طوقان، إبراهيم: الديوان، ، ص 48.
[2] إسماعيل، عبد الله: إبراهيم طوقان في ذكراه الثانية و الأربعين، قراءة في شعره الوطني،مجلة الفجر الأدبي، آب/أيلول 1983،القدس، ص39.
[3] طه، المتوكل: الساخر و الجسد، ص 198.
[4] النبأ:34
[5] ينظر:الطريفي، يوسف عطا: إبراهيم طوقان حياته و شعره، ص 85.

لا بـــــد مـــــن ثمـــــر لـــــه يومـــــا و إن لـــــم يعقـــــد[1]

فيما تقدم يرفع الشاعر من شأن الشباب ويشجعهم على التسلح بالعلم والأخلاق من أجل مقارعة المستعمرين والتصدي لهم.[2]، فقد كانت صرخات إبراهيم مدوية في شحذ الهمم، وتفتح الوعي من خلال التنبيه لما يُراد بفلسطين من ذُل واضطهاد تمهيداً لتهويدها وتحقيق الوطن القومي لليهود من النيل إلى الفرات [3].

يقف إبراهيم من جديد على تلته الخاصة ويوجه نداءه إلى (رجال البلاد) في قصيدته التي أسماها باسمهم، ويُحرض من جديد، فهو صاحب الفكرة الحية التي لا تموت بمرور الأعوام والسنين، فقد "نبهت تلك الأفكار نفرا واعيا من العاملين في الحقل الوطني و أضرمت نار الثورات على أديم (فلسطين) وأثارت مشاعر إبراهيم وهو الشاعر المرهف الحس، الصّلب العود، فهبّ إلى إثارة قومه وتنبيههم إلى ما يُراد بهم من جور وإذلال بشعر وطني عارم، رأى فيه المستعمرون لهبا يؤجج الوعي القومي ويُفسد عليهم خططهم، فجنّبوا إبراهيم إدارة القسم العربي في دار الإذاعة الفلسطينية، و ضيقوا عليه الخناق، وحملوه على الهجرة إلى العراق، وهناك عاوده داؤه، وعزّ دواؤه، فآب إلى (فلسطين) ليلقى فيها ربه، و يقضي نحبه"[4]. يقول إبراهيم معاتبا و ناصحا ابن البلاد:

(البحر الخفيف)

رحـــــم الله مخلصـــــا[5] لـــــبلاد ســـــاوموه الـــــدنيا بهـــــا فأباهـــــا

لـــــو أتـــــوْه بـــــالتبر وزن ثراهـــــا لأبـــــاه و قـــــال أفـــــدي ثراهـــــا

أنفـــــروا أيهـــــا النيـــــام فهـــــذا يـــــوم لا ينفـــــع العيـــــون كراهـــــا

كُشـــــفت مـــــنكم المقـــــا تِـــل وامتـــدت إليهـــا المثقفـــات قناهـــا

نبئـــوني عـــن القـــوي متـــى كـــا نَ رحيمـــا، هيهـــات مـــن عـــزّ تاهـــا

لا يلـــين القـــوي حتـــى يُلاقـــي مثلـــه عـــزةً و بطشـــاً و جاهـــا

لا ســـمت أمـــةً دهتهـــا خطـــوبٌ أرهقتهـــا ولا يثـــور فتاهـــا[6]

نصيحة إبراهيم طوقان في هذه الأبيات حملت في باطنها كثيراً من المعاني و المفاهيم القيمة:

---

[1] طوقان، إبراهيم: الديوان، ص 49.
[2] ينظر: الطريفي، يوسف عطا: إبراهيم طوقان حياته و شعره، ص 97.
[3] ينظر:الملثم، البدوي: الوطن في شعر إبراهيم طوقان، ص17.
[4] الملثم، البدوي: الوطن في شعر إبراهين طوقان، ص 17، 18.
[5] إشارة إلى الشيخ عبد القادر المظفر.
[6] طوقان، إبراهيم: الديوان، ص 56.

- العبرة من الماضي وتذكره من خلال مواقف الرجال المخلصين الذين ضحوا لأجل بلادهم.
- الحث على الصحوة الواعية قبل فوات الأوان، وهي صحوة القلب لا العين، وفي هذا السياق استخدم الشاعر كلمة (النيام) وهي إن دلت على شيء فهي تدل على الغفلة المؤقتة.
- التحذير من العدو، وعدم التسليم لألاعيبه ومخططاته وإغراءاته.
- الحث على المقاومة والثورة، فالمقاومة هي طريق الأمم السامية نحو المجد والحرية، وكأن لسان حاله يقول بأن (ما أخذ بالقوة لا يسترد إلا بالقوة).

مما سبق، نلحظ أن طوقان قلَّما عرض بالإنجليز واليهود وبعبارة أوضح أن ما قاله في التقريع بشعبه بهدف إصلاحه وتحفيزه على الثورة يعد أضعاف ما قاله مهاجما الإنجليز المحتلين واليهود المهاجرين فكانت دعوته الدائمة إلى الثورة وحمل السلاح[1].

فبعد أن عينت الحكومة البريطانية نائباً عاماً يهودياً في فلسطين، قد أمعن في الكيد والاضطهاد للعرب، ترجل له أحد الشبان و أطلق عليه النار و جرحه[2]. و بعد هذا الحدث العظيم، خرج إبراهيم ليفجر قصيدة من أروع قصائد الفداء، وكأن تحريضه وتوعيته السابقة لأبناء شعبه لم تذهب سُدى:

(مجزوء الخفيف)

لا تسـل عـن سـلامته ... روحـه فـوق راحتـه
بدّلتـه همومـه ... كفنـا مـن وسـادته
يرقـب السـاعة التـي ... بعـدها هـول سـاعته
شـاغلٌ فكـر مـن يـرا ... هُ بـإطراق هامتـه
بـين جنبيـه خـافقٌ ... يتلظـى بغايتـه
مـن رأى فحمـة الـدجى ... أضـرمت مـن شـرارته
حمّلتـه جهـنم ... طرفـا مـن رسـالته[3]

إلى أن قال:

(مجزوء الخفيف)

[1] ينظر: إسماعيل، عبد الله: إبراهيم طوقان في ذكراه الثانية والأربعين، قراءة في شعره الوطني، مجلة الفجر الأدبي، آب/أيلول 1983،القدس، ص40.
[2] المصدر السابق، ص 65.
[3] طوقان، إبراهيم: الديوان، ص 65.

صـــــــامت لـــــــو تكلمـــــــا لفـــــــظ النـــــــار و الـــــــدما

قـــــل لمـــــن عـــــاب صـــــمته خُلـــــق الحـــــزم أبكمـــــا

و أخـــــو الحـــــزم لـــــم تـــــزل يـــــده تســـــبق الفمـــــا

لا تلومـــــــوه قـــــــد رأى مـــــنهج الحـــــق مظلمـــــا

و بـــــــــلادا أحبهـــــــا ركنهـــــا قـــــد تهـــــدما

و خصـــــــوما ببغـــــــيهم ضـــــجّت الأرض و الســـــما[1]

كان من الممكن أن يكون الفدائي أي بطل يفدي وطنه، إلا أن الشاعر انشغل برسم ملامح شخصية له. مؤكدا في كل مرة، أن البطل ليس آلة بطولة، وإنما هو مشاعر ورؤيا وهموم وعزيمة[2]. وتأتي مناسبة هذه القصيدة نتيجة إذلال العرب وقهرهم، فقد كان النائب العام البريطاني الذي أقحم العرب بقوانينه التعسفية يُدعى (بنتويش) قد أصيب برصاص أحد الفدائيين الأبطال و قيل هو عبد الغني محمد من عائلة السباعنة، فقصيدة الفدائي جاءت كتحية لهذا البطل و لصنعه المُشرّف [3]. وقد وصف طوقان هذا الفدائي البطل بقنديل الخلاص والمنقذ لعذابات الشعب الفلسطيني و جراحاته [4].

تبرز اللافتة الأدبية في قصيدة (الفدائي) في ثلاثة أبيات شعرية و هي:

(مجزوء الخفيف)

لا تســـــل عـــــن ســـــلامته روحـــــه فـــــوق راحتـــــه

صـــــامت لـــــو تكلمـــــا لفـــــظ النـــــار و الـــــدما

و أخـــــو الحـــــزم لـــــم تـــــزل يـــــده تســـــبق الفمـــــا[5]

و في الشطر الثاني من البيت الأول ننعم النظر في التناص الأدبي الذي أخذه طوقان من الشاعر عبد الرحيم محمود في (روحه فوق راحته)، و هذا التناص زاد قصيدة (الشهيد) لعبد الرحيم محمود شهرة و إقبالا، حين استهلها الشاعر بقوله:

(البحر المتقارب)

---

[1] المصدر السابق، ص 66.

[2] ينظر: دحبور، أحمد: إبراهيم طوقان في مئوية ميلاده: هل الشعر أسلوب حياة؟ ، مجلة الكرمل، خريف 2005، ع 85، ص 221.

[3] ينظر:الطريفي، يوسف عطا: إبراهيم طوقان حياته و شعره، ص 101، 102.

[4] ينظر:برزق، مروان محمد: الشاعر إبراهيم طوقان يملك نبوءة التشرد و النكبة، مجلة الموقف العربي، ص 141.

[5] المصدر السابق، ص66.

ســـأحمل روحـــي علـــى راحتـــي و ألقـي بهـا فـي مهـاوي الـردى[1]

"و يندرج في نفوذ إبراهيم ذاته في الآخر، أو في مصطلح (المواردة) النقدي القديم ما يُستشف من تلاقٍ أو تعالق نصي مترجّح في الوضوح و الخفاء بينه و بين ثلاثة من معاصريه: صديقه ورفيقه في النضال الشاعر الفلسطيني عبد الرحيم محمود، والسوري عمر أبو ريشة والمصري إبراهيم ناجي. فأما عبد الرحيم محمود، فالشطر الأول من مطلع قصيدته السائرة (الشهيد)، التي نظمها إبّان الثورة الفلسطينية الكبرى (1936-1939)م التي شارك فيها، ونشرها بدءا في مجلة (الأمالي) البيروتية، ليس سوى صدى عالٍ للشطر الثاني من مطلع قصيدة (الفدائي) المعروفة لإبراهيم الذي نظمها عام 1930م. وقد يكون هنا مكمن المواردة، أن الشطرين كليهما من صميم الاستعمال اللغوي الشعبي الدارج في جنوبيّ بلاد الشام حيث يُقال: (حامل روحه على إيده) أي (يده). ناهيك بالخيط الخفي بين قول عبد الرحيم"[2]:

(البحر المتقارب)

إذا قلـــت أصـــغى لـــي العـــالَمون ودوّى مقـــالي بـــين الـــورى[3]

و قول إبراهيم:

صـــــامتٌ لـــــو تكلمـــــا لفـــــظ النـــــار و الـــــدما[4]

حرص شاعرنا على وحدة الصف العربي و بث الوعي في عقول الشباب وعامة الشعب، و انطلاقا من هذا فقد تنبه إبراهيم طوقان إلى مبادئ سامية في طريق التخلص من الاحتلال الإنجليزي، و حماية البلاد من الطامعين و منها:

1. منع الهجرة الأجنبية إلى البلاد، لأن المهاجر يدخل ضيفا او زائرا ثم يدّعي ملك البلاد.
2. الكلام و الشكوى لا يردّان مسلوبا.
3. سيادة الأخلاق الكريمة.
4. الدعوة إلى الوحدة الوطنية.
5. الدعوة إلى التمسك بتعاليم القرآن.
6. الشهادة في سبيل الله غاية المجاهد، و فيها دعوة إلى الجهاد[5].

---

[1] محمود، عبد الرحيم: الديوان ، جمع و تحقيق عز الدين المناصرة، دار الكرمل، عمان، 1993، ص 24.
[2] بكّار، يوسف: إبراهيم طوقان دراسة جديدة و مختارات، ط1، دار المناهل، بيروت، 2007، ص 68، 69.
[3] المصدر السابق، ص24.
[4] طوقان، إبراهيم: الديوان، ص66.
[5] ينظر:شراب، محمد حسن: شعراء فلسطين في العصر الحديث، ص 26، 27.

في نهاية هذا القسم نستنتج عزم الشاعر إبراهيم طوقان وأمله في تلبية مطالب الشعب وإصغاء الشباب لنصائحه وتنبيهاته الداعية إلى أخذ الحيطة والحذر، ولكن نجد غياب الوعي الشعبي عند غالبية المواطنين، وذلك يعود إلى أكثر من عامل أوردها كالآتي:

- التمييز بين طبقات الشعب الفلسطيني التي كانت تعيش على الأرض: الطبقة الأرستقراطية التي ينتمي إليها الشاعر، والطبقة المتوسطة، والطبقة الكادحة، وقد خاطب الشاعر بعض أفراد هذه الطبقات ممن يهمهم الشأن الوطني، ولم يلقَ استجابة واضحة بسبب انشغالهم بمصالحهم الشخصية على حساب الوطن.
- كما نعلم أن الشاعر كان يوجه قصائده وآراءه في الجرائد وفي الإذاعة، وعدم استجابة عامة الشعب لتوجيهاته يدل على عدم التعليم الشامل للفئات العمرية كافة مما أدى إلى تفشي الأمية وعدم قراءة الجرائد، وعدم اقتناء البعض لأجهزة المذياع للاستماع للإذاعة.
- قراءة الجرائد والاستماع للإذاعة اقتصرت على فئة معينة أدركت مضمون قصائد طوقان ورسائله للشعب من خلالها، ولكنها حصرت هذا الوعي على نفسها ولم تساعد في نشره بين أطراف الشعب، ما أدى إلى قلة الوعي الوطني بالقضية.
- حب المال والسلطة، حيث تفشى التقليد الأعمى من طرف عامة الشعب من خلال بيع الأراضي و الحصول على الأموال.
- غياب الوعي الديني وتفشي الظلم بين أفراد العائلة الواحدة، ولكي لا نبتعد كثيراً وتظل الصورة حية، فعائلة طوقان نفسها كانت تعاني من سلطة الأب الظالم، فتوزعت طبقات الشعب الفلسطيني على أفراد عائلة طوقان، من الأب الأرستقراطي إلى إبراهيم الذي انسلخ من سيطرة هذه الطبقة إلى طبقة وسطى أقل منها درجة، وإلى فدوى التي رفضت طبقتها وقسوة أبيها لتنادي بالقومية العربية وحب الآخر، إلى أخيهم رحمي الذي انضم إلى طبقة البسطاء والتيار الشيوعي. فالضياع في الوسط العائلي الخاص أدى إلى ضياع أعم وأشمل على الأرض.

ثالثاَ: الزعامات في الوطن

ظلّ شاعرنا متيقظاً لما يدور حوله على الصعيد المحلي والوطني، فقد كان يملك حساً واعياً ومدركاً بما يحصل على الساحة الوطنية بين أطراف النزاع المختلفة من يهود ودولة الانتداب ودور الزعماء في الوطن، ففي يوم الجمعة 27 تشرين الأول 1933، قررت الزعامات التقليدية القيام بمظاهرة سلمية احتجاجاً على السياسة الظالمة، وفي مدينة يافا، خرج المصلون بهذه المظاهرة وعلى رأسها موسى كاظم باشا الحسيني [1]، رئيس اللجنة التنفيذية العربية، مما أدى إلى إطلاق النار عليهم واعتقال البعض منهم، كان من أهمهم الشيخ عبد القادر المُظفر الذي رفض تقديم كفالة حُسن سلوك وآثر السجن عليه "[2].

راقب إبراهيم هذا الوضع المزري الذي وصل إليه الزعماء، فأنشأ يقول في قصيدة (إلى الأحرار):

(البحر البسيط)

أحرارنـــا! قـــد كشـــفتم عـــن (بطـــولتكم) غطاءَهـــا يـــوم توقيـــع الكفـــالات..
أنـــتم رجـــال خطابـــات منمقـــة كمـــا علمنـــا، وأبطـــال (احتجاجـــات)
و قـــد شـــبعتم ظهـــورا فـــي (مظـــاهرة) (مشـــروعة!) و ســـكرتم بالهتافـــات
و لـــو أصـــيب بجـــرح بعضـــكم خطـــأً فيهـــا، إذاً لـــرتعتم بالحفـــاوات
بـــل حكمـــة الله كانـــت فـــي ســـلامتكم لأنكـــم غيـــر أهـــل للشـــهادات
أضـحت فلسـطين مـن غـيظ تصـيح بكـم: خلّـوا الطريـق فلسـتم مـن رجـالاتي
ذاك الســـجين[3] الـــذي أغلـــى كرامتـــه فـــداؤه كـــل طـــلاب الزعامـــات[4]

فالأبيات السابقة تبرز صورة أولئك الزعماء الذين يدّعون الوطنية وخدمة مصالح الشعب، مما دفع إبراهيم إلى نقدهم وفضح أسرارهم على العلن، ومهاجمتهم من خلال شعره الذي حمل طابع التهكم والسخرية، حيث قارن بينهم وبين الشيخ المظفر الذي رفض التوقيع، وكان المخلص لوطنه وقضيته [5] ،حتى قال فيه قصيدة أسماها باسمه (الشيخ المظفر)، قال فيها:

---

[1] والد الشهيد عبد القادر الحسيني بطل (معركة القسطل) و قد استشهد يوم الخميس الموافق 8 نيسان 1948م.
[2] ينظر: الملثم، البدوي: إبراهيم طوقان في وطنياته و وجدانياته، ص 71، 72.
[3] الإشارة إلى الشيخ عبد القادر المظفر.
[4] طوقان، إبراهيم: الديوان ، ص 73.
[5] ينظر:الطريفي، يوسف عطا: إبراهيم طوقان حياته و شعره، ص 82، 83.

(البحر الكامل)

أنظـــر لمـــا فعـــل (المظفـــر)، إنـــه نفـــع القضـــية غائبـــا لـــم يحضـــر!
عرضـــوا الكفالـــة و الكرامـــة عنـــده عبثـــا.. و هـــل عـــرضٌ يقـــاس بجـــوهر
و رأى التحيّـــر فـــي التخيّـــر سُـــبةً ففـــدى كرامتـــه (بســـتة أشـــهر)
إن (المظفـــر) مـــن حديـــدٍ جســـمُه فيمـــا أرى، وجســـومهم مـــن ســـكر![1]

و مما يجدر ذكره في هذا السياق الحافز الذي دعا إبراهيم إلى كتابة هذه القصيدة، إذ تلقى رسالة من إبراهيم الشنطي صاحب صحيفة الدفاع خاطبه فيها قائلا: "و الحالة في البلاد اليوم مضحكة مخزية فاعذرني حين أطلب إليك أن تقيلني من إنشاد شعر الألم بين هذه الضحكات والمخازي. إن البلد الصابر المكافح ينتظر من شاعره قريضا يشحذ عزيمة فتيانه... ابعث القيثارة وابعثها مقتحمة رنانة داوية الصوت... أرسل نشيد البعث والجندية والرجولة، أرسله فقد طال على الشباب إرسال الأغاني الرخيصة...! و راح إبراهيم الشاعر يهمهم إلى أن طلع على القراء بسبعة أبيات عنيفة ندّد فيها بالزعماء الذين وقعوا (الكفالات)"[2].

بدا أسلوب السخرية واضحا في القصيدة السابقة، حيث بدأ شاعرنا هذه القصيدة بكلمة (أحرارنا)، وهذا السياق يستدعي القارئ إلى التعجب من ردة فعل الشاعر من أفعال زعامات الوطن غير البطولية، فالتناقض الدلالي واضح بين المضمون البارز لكلمة (الأحرار) وما ألحقه طوقان من صفات لهؤلاء الزعماء، وهي صفات متناقضة لا يتحلى بها الأحرار، وأهمها:

- رجال خطابات منمّقة.
- أبطال احتجاجات.
- حُب الظهور وترديد الهتافات.

و تبرز الصورة الفنية واضحة، فها هي فلسطين الأبية تصرخ وتصيح بهم بأن يفسحوا الطريق لمن في قلبه سنابل الحب والوفاء، وتتبرأ منهم أمام الملأ لأنهم ليسوا أهلا لها.

يستمر طوقان في هجومه فيأتينا بقصيدة عنوانها: (أنتم..!)، وجهها إلى الزعماء، ويتضح من خلال العنوان النبرة الاستنكارية في الخطاب، وكأن شاعرنا قد ضاق بهم ذرعا فما هم إلا عالة على الوطن والوطنية:

---

[1] طوقان، إبراهيم: الديوان ، ص 75.
[2] الملثم، البدوي: الوطن في شعر إبراهيم طوقان، ص 13، 14.

(البحر الخفيف)

أنـــــتم (المخلصـــــون) للوطنيـــــة ... أنـــتم الحـــاملون عـــبء القضـــية
أنـــتم العـــاملون مـــن غيـــر قـــول!! ... بـــــارك الله فـــــي الزنـــــود القويـــــة
(وبيـــــان) مـــــنكم يعـــــادل جيشـــــا ... بمعـــــــدات زحفـــــــه الحربيـــــــة
(واجتمـــــاع) مـــــنكم يـــــرد علينـــــا ... غـــــابر المجـــد مـــن فتـــوح أميّـــة
و خـــلاص الـــبلاد صـــار علـــى البـــا ... بِ وجـــــاءت أعيـــــاده الورديـــــة
مـــا جحـــدنا (أفضـــالكم) غيـــر أنّـــا ... لـــم تـــزل فـــي نفوســـنا أمنيّـــة
فـــي يـــدينا بقيـــة مـــن بـــلاد.. ... فاســـتريحوا كـــي لا تطيـــر البقيـــة[1]

تكمن وظيفة إبراهيم الشاعر في تجريس الزعماء السياسيين الذين يهاجمون بعضهم بعضا ولا يقدمون شيئا يُذكر سوى الاحتجاجات الإنشائية رداً على مؤامرات المستعمر البريطاني، وهذا قد شجع طوقان للرد عليهم عن طريق الخطاب المباشر في قصائده التي حملت معاني النداء: يا موطني- اشتروا الأرض- يا قوم- أيها الأقوياء- أيتها الحكومة- أنتم- وطني أنت لي- يا سراة البلاد.[2] "وإن الدارس الحصيف يدرك أهمية تجربة إبراهيم طوقان الشعرية قياسا على غيرها من التجارب، فإذا انحصرت أكثر التجارب وأنضجها في غناء الذات الفردية والجماعية وبعث تالد مجدها، فإن شاعرية طوقان لم تنشغل بذلك عن المعاينة الدقيقة للواقع وكشف ملابساته، ولم يتخوف من كشف عورة معسكره حتى وهو في حالة مواجهة مع الآخر، مدركا ببصيرته النافذة أن الخطر المترتب على فعله هذا يهون كثيرا عن ذلك المترتب على السكوت على الخطأ، ومصانعة كبار شعبه، الذين شغلتهم مصالحهم الفردية، عن تدبّر الأزمة الأبعد أثرا، والأخطر عاقبة، فهذا أبو سلمى عبد الكريم الكرمي، ومحمد العدناني، وإسكندر الخوري البيتجالي، ومطلق عبد الخالق وبرهان الدين العبوشي وآخرون إذ وقفوا شعرهم في الأغلب الأعم على التعريض بالخصوم، وتمجيد الذات الوطنية، بينما يكاد إبراهيم طوقان يقف متفردا بين هذه التجارب، حاثا بني قومه تارة، ومعنفا وساخرا منهم تارة أخرى، ومفندا لدعاوي الخصم ورادّاً لها في كل الأحوال"[3]. ومما يدل على أن إبراهيم طوقان كان ينظر في سلوك زعماء البلاد، هو هجاؤه وسخريته منهم في نصوصه، لأن ولاءهم ليس لبلادهم، بل لمصالحهم الشخصية، إضافة

[1] طوقان، إبراهيم: الديوان ، ص 80.
[2] ينظر:دحبور، أحمد: إبراهيم طوقان في مئوية ميلاده، هل الشعر أسلوب حياة؟، مجلة الكرمل، خريف 2005، ع 85، ص 222.
[3] أبو خشان، عبد الكريم: الأنا و الآخر عند إبراهيم طوقان، مجلة الشعراء، صيف 1998، ص 127.

إلى فقر الوعي السياسي لديهم، فكان جُل اهتمامهم هو الحصول على مجلس بلدي لا أكثر، في حين كانت البلاد تطير من بين يدي أهلها. [1]

يقول إحسان عباس في مقالٍ له بأن (الشعبية) في قصائد إبراهيم هي التي تجعل الشعر قريبا من الجماهير، "وهي مطلب كان يحرص عليه إبراهيم بشدة، وكان يتأتى له من جميع الطرق الممكنة مثل: البساطة، واستعمال التعبيرات الشائعة، واختيار الموضوع الملائم، واستغلال اللمح، والنكتة، أن يجعل جانبا كبيرا من شعره غذاءً للشعب سواء في لحظات الراحة، والمتعة، أو في لحظات الثورة، والنضال. على أن القول بأن الشعر عبارات نثرية موزونة لا يفسر أيضا طبيعة الشعر تفسيرا شموليا، فقول إبراهيم:

أنـــتم العـــاملون مـــن غيـــر قـــول بـــارك الله فـــي الزنـــود القويـــة[2]

هذا البيت الشعري قائم على سخرية عميقة في مخاطبة الزعماء الفلسطينيين، بل إن الشطر الثاني من البيت كان يتردد على كل لسان في نطاق الحديث اليومي قبل أن ينقله إبراهيم إلى الشعر"[3].

ولعل من أشكال السخرية والمفارقات التي احتوت عليها قصيدة (أنتم) "معاكسة النتائج للمقدمات، فالسخرية تحتاج إلى منطق معين، ذلك لأنها تأتي أولا بالمقدمات لتخلص إلى النتائج، و عادة- هذا مما يثير السخرية- أن لا تتطابق المقدمات مع النتائج. و هذا ما استعمله الشاعر في بعض قصائده"[4].

يستمر الشاعر في هجومه ضد الزعماء الذين جعلوا جُل اهتمامهم التنافس على كراسي البلديات، وهم في غفلة عن أوضاع البلاد المُزرية، فقد خرج طوقان و ببصيرته المتوقدة لتنبيه قومه ولرسم معالم الطريق التي ستودي بهم نحو الهلاك إذا ما استمروا في سُباتهم والسعي وراء مصالحهم الوهمية:

(مجزوء الكامل)

هزلـــــت قضـــــيتكم فـــــلا لحـــــــــم هنـــــــــاك ولا دم

حتـــــى العظـــــام فقـــــد تعـــــرْ رَقهـــــا الـــــذئاب و أتخمـــــوا

بليـــــت قضـــــيتكم فصـــــا رَتْ هـــــــــيكلا يتهـــــــــدم

---

[1] ينظر:الأسطة، عادل: الزعامة الفلسطينية في النص الأدبي ما بين طوقان و كنفاني والمتوكل طه، مجلة تسامح، آذار 2005، ع 8، ص 106، 107.

[2] طوقان، إبراهيم: الديوان، ص80.

[3] عباس، إحسان: نظرة في شعر إبراهيم طوقان، مجلة الجديد في عالم الكتب و المكتبات، ربيع 1995، ع 6، ص 8.

[4] طه، المتوكل: الساخر و الجسد، ص 111.

ضـــــــمرت إلـــــــى (بلديـــــــة) فيهـــــــا العـــــــدا تـــــــتحكم[1]

أوضـــــــــــاعها مجهولـــــــــــة و مصـــــــــــيرها لا يُعلـــــــــــم

يـــــا قـــــوم لـــــيس عـــــدوكم ممـــــــن يلـــــين ويـــــرحم

يـــــا قـــــوم لـــــيس أمـــــامكم إلا الجـــــــلاء فحزّمـــــــوا[2]

حملت "صورة الزعامة في أشعار طوقان صورة سلبية كما نرى، إذ حمَّلَ طوقان هؤلاء الزعماء المسؤولية عن ضياع الوطن واختصاره إلى بلدية يتقاتلون من أجل الظفر بمنصب رئيسها"[3]. ومما زاد الأمر تعقيداً اشتداد الخصام بين الأحزاب في الوقت الذي أعلن فيه المستعمر عن انتخابات البلديات في المدن الفلسطينية، حيث سعى لإشعال نار الانقسام بين أعضاء الأحزاب بهدف إلهاء الشعب الفلسطيني وصرف الأنظار عن القضية الأساسية، فقام إبراهيم يُنذر ويُحذر ويتوعد[4]. و"إبراهيم طوقان بحكم انتمائه الموضوعي الطبقي إلى إحدى العائلات ذات النفوذ والحضور في مدينة نابلس، استطاع أن يكوّن صلة وثيقة بالبيئة التي تفرز القادة و الزعماء، وهذا يعني أنه كان يعرف الكثير من مساوئهم ومداخلهم ومخارجهم. و لكن الشاعر كان عصاميا ولم يعتمد على عائلته في كسب رزقه، أو لم ينح نحوهم في التجارة والزعامة والوجاهة، أي أنه رفض طبقته. هذا الانسلاخ الطبقي نجده في هجومه على طبقة الزعماء والسماسرة في كثير من قصائده. و بالرغم من وجوده في مدينة القدس لم يلتحق بأي حزب، ولم يعرف عنه أنه كان من المعارضين (النشاشيبية) أو من المجلسيين (الحسينية) بل قالها صراحة"[5]:

(مجزوء الخفيف)

إن قلبـــــــــي لـــــــــبلادي لا لحـــــــــزب أو زعـــــــيم[6]

قد يظن بعضهم أن إبراهيم قد هجا الحكام لأن آل طوقان لم يكن لهم نصيب من الكراسي، ولكن نجد أن إبراهيم كان منسلخاً عن طبقته بكونه الشخص اللامنتمي الذي يبتعد عن الجماعة

[1] كان الخصام بين الأحزاب العربية وقتئذ على أشده بسبب انتخابات البلديات في المدن الفلسطينية.
[2] طوقان، إبراهيم: الديوان ، ص 82.
[3] الأسطة، عادل: الزعامة الفلسطينية في النص الأدبي ما بين طوقان و كنفاني والمتوكل طه، ص 107.
[4] ينظر:الطريفي، يوسف عطا: إبراهيم طوقان حياته و شعره، ص 83.
[5] طه، المتوكل: الساخر و الجسد، ص 104، 105.
[6] المصدر السابق، ص 72.

لكي يتسنى له رؤية جماعته بوضوح، ليذكرها بعيوبها ومساوئها، فإبراهيم يلجأ إلى الهروب المنطقي الذي يحمل في مضمونه الخير والصلاح للجماعة [1].

كان إبراهيم طوقان بعيداً عن المجاملات لأن حبه لبلاده فلسطين قد فاق حب الأهل والأحزاب والزعامات المهلهلة، فإبراهيم "لا يتوانى عن إبداء وجهة نظره السياسية، وأنه ماضٍ على سياسته على الرغم ممَّن يعترضون عليه، وأنه باقٍ على عهده في خدمة وطنه دون الانتساب لحزب أو لرأي زعيم"[2].

و بالإشارة إلى ضرورة الصورة الشعرية في شعر إبراهيم، فقد قسمه (رينيه ويلك) إلى أقسام عدة هي:

- الصورة الخفية: وهي التي توحي بالعيني الملموس دون أن توضحه.
- الصورة الجذرية: هي صورة التعبير الأدنى الذي يبدو غير شعري، إما لأنه مألوف جدا أو مستعمل جدا أو لأنه معروف على الصعيد التقني أو العلمي.
- الصورة المتوسعة: وهي التي تفتح فيها كل عبارة فسحة عريضة للمخيلة، كما أن كل عبارة تعدل تعديلا قويا العبارة الأخرى، وهي مجاز العواطف القوية والتأمل الأصيل.[3]

و فيما تقدم تظهر الصورة الخفية في شعر إبراهيم طوقان حين قال:

(مجزوء الكامل)

هزلـــــت قضـــــيتكم فـــــلا لحـــــم هنـــــاك ولا دمُ[4]

إذ عدّ القضية السياسية شخصا هزيلا جدا هنا، فأوحى بالعيني الملموس دون توضيح منه.

ولأن القدس هي المركز الرئيس للتنافس بين الزعامات، راح شاعرنا يشكو هم البلاد في قصيدته (القدس)[5] وما آلت إليه من ورائهم بنبرة يكسوها الحزن والأسف:

دار الزعامـــة والأحـــزاب كـــان لنـــا قضـــية فيـــك، ضـــيعنا أمانيهـــا

هـــل تـــذكرين وقـــد جاءتـــك ناشـــئة غنيـــة دونهـــا الأرواح تفـــديها

تـــود لـــو وجـــدت يومـــا أخـــا ثقـــة لـــديك يوســـعها بـــرا و يحميهـــا

---

[1] ينظر:طه، المتوكل: الساخر و الجسد، ص 105.

[2] الطريفي، يوسف عطا: إبراهيم طوقان حياته و شعره، ص 316.

[3] ينظر: المصدر السابق، ص 248-252.

[4] طوقان، إبراهيم: الديوان ، ص 82.

[5] سماها بالقدس بمناسبة التطاحن الحزبي الذي تفشى في فلسطين حينذاك، و كانت القدس، بوصفها عاصمة البلاد، مركز ذلك التطاحن.

ولا أفــادت ســوى الأحقــاد تُضــرمها فــوق الــبلاد (زعامــاتٌ) و تُــذكيها

قضــــية نبــــذوها بعــــدما قتلــــت و مــا ضــر لــو فتحــوا قبــرا يواريهــا[1]

فإبراهيم لم يكن قاسيا في شعره إلا لإثارة النخوة في نفوس هؤلاء الزعماء وتحويلهم إلى القضية الأساسية والرئيسة التي يجب الدفاع عنها، لذلك خاطب القدس مقر الزعامة والأحزاب السياسية بألم يدل على صدق وطنيته ونقاء سريرته[2]، لأن "الزعامة هي التي أضاعت القضية، هكذا يقول طوقان في قصيدة (القدس) التي يقول فيها أيضا إنَّ الناشئة جاءت تدافع عن القضية وتحييها بأرواحها، آملة أن تجد ذا ثقة، ولكنها ما وجدت سوى زعامات تضرم الأحقاد، فوق البلاد، و تذكيها، غير مبالية بإلقاء كرام الناس حطبا لها"[3].

لعلّ الشاعر حينما كتب قصيدة (الإيمان الوطني) و التي يطلق عليها اسم (جماعة السار) أيضا، كان متأثرا بحب الآخرين من غير العرب لأوطانهم، فقد كان معجباً بالخلق الذي حمله المواطن الألماني وإيمانه بوطنه و اعتباره (ألمانيا فوق الجميع) [4]، حينها أنشأ يقول:

(البحر الخفيف)

ليـت لـي مـن جماعـة (السـار) قومـا يتفـــانون فـــي خـــلاص الـــبلاد

أو كإيمـــانهم رســـوخا و عمقـــا ثابـــت الأصـــل فـــي قـــرار الفـــؤاد

مثــل هــذا الإيمــان يضــمن لــلأوْ طــانِ عــزا، و مثــل هــذا التفــادي

لا كإيمــان مــن تــرى فــي فلسطيــ نَ قصــير المــدى، كليــل الزنــاد

يتـــداعى إذا تســـلّط وعـــدٌ أو وعيـــد عليـــه عنـــد العـــوادي

أو قطـوب... تخيـب منـه المسـاعي، و ابتسـامٌ... تـذوب فيـه المبـادي

لا تلمنــي إن لــم أجــد مــن ومــيضٍ لرجــاءٍ مــا بــين هــذا الســواد[5]

إن المخاطب في هذه القصيدة هو القارئ العربي الذي يرجو انبعاث خيط من الأمل في مسيرة الشعوب، ولكن هيهات أن نجد ذلك الوميض كما يقول الشاعر، لأننا لا نملك ذلك الإيمان القوي بانتمائنا إلى أرض الوطن التي احتضنتنا، فطوقان يرى أن السواد منتشر في كل الأرجاء

---

[1] طوقان، إبراهيم: الديوان ، ص 77.

[2] ينظر: الطريفي، يوسف عطا: إبراهيم طوقان حياته وشعره، ص 85.

[3] الأسطة، عادل: الزعامة الفلسطينية في النص الأدبي ما بين طوقان و كنفاني والمتوكل طه، ص 107.

[4] ينظر:الملثم، البدوي: الوطن في شعر إبراهيم طوقان، ص 76.

[5] المصدر السابق ، ص 74.

وهنا تبرز الصورة التشاؤمية الداعية إلى اليأس من الأوضاع غير المطمئنة. أشير هنا إلى استخدام الشاعر كلمة وميض ودعوته إلى الإيمان، ربما كان شاعرنا يدرك أن رجال البلاد لا يملكون البصيرة لرؤية الأمور فأنى لهم الإيمان إذن! وكأن غياب هذا الوميض يخلف لنا الموت و العار "بسبب تناحر الأخوة الأعداء، الذين يغلّبون مصالحهم الخاصة على العامة، وراحوا يتواطؤون مع العدو المتغطرس"[1]، و في هذه القصيدة "استنهاض للهمم وسط السواد اللافح للأمة"[2].

يعود الشاعر الفذ لينصح و يذكر زعماء قومه من جديد بأن السياسة لعبة لا تليق بهم ومن الأفضل أن يتركوها، وهنا تغلب على الشاعر صفة اليأس من إقناع رجالات قومه، فيلقي بين أيديهم هذه الأبيات الشعرية لعلهم يستجيبون لها بشيء من السمع والطاعة:

منـــذ احـــتلال الغاصـــبين و نحـــن نبحـــث فـــي السياســـة
شـــأن الضـــمير مـــع السياســـة كـــالرقيق مـــع النخاســـة
مـــرّت علينـــا ســـت عشـــرة، كُـــنّ مجلبـــة التعاســـة
فـــإلى متـــى يـــا ابـــن الـــبلاد و أنـــت تؤخـــذ بالحماســـة
و إلـــى متـــى (زعمـــاء) قومـــك يخلبونـــك بالكياســـة
و لكـــم أحطنـــا خائنـــا مـــنهم بهـــالات القداســـة ..
و لكـــم أضـــاع حقوقنـــا الرجـــل الموكـــل بالحراســـة !.[3]

فالسياسة في نظر شاعرنا تكمن في مواجهة هؤلاء الزعماء الذين تمادوا ببيع حقوق الشعب والوطن في سبيل الحصول على مناصبهم البالية، فقصيدة (فلسطين مهد الشقاء) السابقة جاءت كرسالة من الشاعر إلى هؤلاء الزعماء، ليعوا أن الوطن أكبر من خلافاتهم ومناصبهم [4]. وحين لم تستجب تلك الرسالة من زعماء بلاده، أخذ إبراهيم يُشهّر بهم وبمواقفهم، ففي عام 1934م شنّ حملة قاسية عليهم واتهم الصحافة بتضليل الشعب [5]، لذلك نلحظ طوقان في النص السابق يركز "على الصورة السلبية للزعامة الفلسطينية في زمنه، حين يقارن بينهم و بين زعماء عالميين

[1] طه، المتوكل: الساخر و الجسد، ص 80.
[2] الطريفي، يوسف عطا: إبراهيم طوقان حياته و شعره، ص 308.
[3] طوقان، إبراهيم: الديوان ، ص 59.
[4] ينظر:المرجع السابق، ص 82.
[5] ينظر:الملثم، البدوي: إبراهيم طوقان في وطنياته و وجدانياته، ص 84.

كانت صورتهم لديه إيجابية، إن زعماء بلاده عصبة دلالين لا يتقون فيه الله، وهم لا يعرفون سوى القول حيث يؤخذ به ابن البلاد"[1].

و حين نتحدث عن الشاعر إبراهيم طوقان لا يمكن أن نصفه "بالشاعر السياسي إلا بقبولنا التعريف الواسع للسياسة الذي يشمل مختلف الاهتمامات في الشأن العام. فما نقل عنه أحد أنه كان مشايعا لحزب أو قائد معين. و لو عرض للسياسة مباشرة لكان له فيها ما لا يسر الساسة التقليديين حتى لو بدا كلامه، لأول وهلة، ضد السياسة بالمطلق، على أن هذا التعفف عن اللعب السياسي، لا يعني أنه لم يكن غاطسا في الشأن العام حتى شحمتي أذنيه. فالتصدي لمطامع المستعمر سياسة، والرد على الشاعر الصهيوني سياسة، والاهتمام بالمحيط العربي سياسة"[2]. ولعل إبراهيم الذي كشف تخاذل السماسرة والمتآمرين قد رفض فكرة العبودية التي تُفقد الإنسان كرامته واحترامه، واعتبر كلمة (الرقيق) موتيفه الذي يشير من خلاله إلى التمايز والعنصرية التي يمارسها الانتداب في تعامله مع بني البشر، فهو انتداب عنصري يجب مجابهته والتصدي لسياسته التي تُحقّر الإنسان :

شأن الضمير مع السياسة كالرقيق مع النخاسة[3]

فالنخاسة و وجود الرقيق تمثل صورة الموتيف الذي يرفضه إبراهيم، هذه السوق التي يجب أن تزول من ساحات الأرض والحياة[4].

ومما يدل على قرب الشاعر من عامة الشعب، استخدامه طرائق متعددة في صياغة النص الشعبي منها: (الجملة، التعبير، المصطلح، المفهوم). و من هذه الطرائق:

- "أخذ المعنى و إعادة صياغته، و مثال ذلك قول إبراهيم (أضاع حقوقنا الرجل الموكل بالحراسة) و المأخوذ من القول الشعبي السائد (حاميها حراميها)"[5].

يعود إبراهيم من جديد يندد بمن تعلق بالسياسة وحبالها الوهمية التي تودي بالزعماء وممن تبعهم إلى الهاوية:

---

[1] الأسطة، عادل: الزعامة الفلسطينية في النص الأدبي ما بين طوقان و كنفاني والمتوكل طه، ص 107.
[2] دحبور، أحمد: إبراهيم طوقان في مئوية ميلاده، هل الشعر أسلوب حياة؟، مجلة الكرمل، خريف 2005، ع 85، ص 221ن 222.
[3] طوقان، إبراهيم: الديوان ، ص 59.
[4] ينظر:طه، المتوكل: الساخر و الجسد، ص 185، 186.
[5] المرجع السابق، ص 222، 223.

يـــا مـــن تعلـــل بالسياســـة... ظنهـــا لطَفـــــت، و لان عَصِـــــيُّها الجبـــــار

مـــا لطفهـــا؟ مـــا اللـــين ذاك؟ و كلهـــم مســـــتعمرون و كلـــــه اســـــتعمار[1]

بدأ طوقان حديثه عن السياسة باستخدام أسلوب النداء (يا) ولعله ينتظر جوابا من أحد الزعماء حول ما يورده من تساؤلات، وحين لم يلقَ جوابا صافيا، يُتبع النداء بأسلوب استفهام متسائلا عن السر الذي يجعل رجالات البلاد يتمسكون بعصا السياسة التي سوف تودي بهم نحو وادٍ سحيق لا يُعرف له قرار، ويأتي الجواب صريحا من الشاعر كي يُوضح للزعماء ولعامة الشعب بأن السياسة هي لعبة مؤقتة هدفها تحقيق غايات المستعمر وآماله. ونتيجة لذلك هبّ الشعراء والأدباء يقاومون هذه السياسات، وفي مقدمتهم إبراهيم طوقان الذي اتخذ من لسانه وقلمه سلاحاً يفضح فيه مخططات المستعمر ويكشفها على العلن بجرأة وشجاعة[2].

يطلب طوقان من زعماء البلاد الكف عن الأقوال التي لا تسمن ولا تغني من جوع، فلو كان القول صادقا لأتبعوه بالأفعال التي تثبت صدق انتمائهم و وطنيتهم:

(البحر الخفيف)

هـــل لـــديكم سياســـة غيـــر هـــذا القـــول يُحيـــــي فـــــي النفـــــوس قواهـــــا

صـــــكّت الألســـــن المســـــامع حتـــــى لقيـــت مـــن ضـــجيجكم مـــا كفاهـــا

عـــــرف النـــــاس والمنـــــابر والأقـــــ لام أفضـــــالكم فهـــــاتوا ســـــواها

كلكـــم بـــارع بليـــغ –بحمـــد الـــ لله طَـــــبٌ بحالنـــــا و دواهـــــا

غيـــــر أنّ المـــــريض يرقـــــب مـــــنكم هـــــذه الجرعـــــة التـــــي لا يراهـــــا

كـــان أولـــى بكـــم لـــو أنّ مـــع القـــو لِ فعـــــالا محمـــــودة عُقباهـــــا

مَثَـــــلُ القـــــول لا يؤيّـــــده الفـــــعْ لُ أزاهيـــــر لا يفـــــوح شـــــذاها

و هـــو كالدوحـــة العقـــيم: ظـــلال واخضـــــرارٌ ولا يُرجّـــــى جناهـــــا[3]

يصرح طوقان في هذه الأبيات بضرورة ترك الشعارات الرنانة والأقوال التي سئم منها الشعب إلى اتخاذ إجراءات وأفعال صارمة تُحيي الهمم في النفوس "ويمضي طوقان في هذا السبيل إلى منتهاه، فالسماسرة يتساوون مع زعماء البلاد تجار الوطنية أبطال البيانات والخطابات

---

[1] طوقان، إبراهيم: الديوان ، ص 84.

[2] ينظر:الطريفي، يوسف عطا: إبراهيم طوقان حياته وشعره، ص 81.

[3] المصدر السابق، ص 56.

و الاحتجاجات و المظاهرات المشروعة"[1]. فالشاعر كان "من الذين رفدوا الشعر الفلسطيني بمنهجية الواقع المأساوي و صدق رؤية تسلسل الأحداث المتعاقبة، كتهيئة الوطن من جانب المحتل لسياسات النزوح بتشجيع من طغمة قيادية متخاذلة كانت تتستر بالوطنية والحزبية كقناع لتمرير مخططاتها وممارساتها، عدا عن ذلك رؤيته السياسية الثاقبة التي لم تنل منها نغمات الانسياق لبعض المتربعين على سدة الحكم في السلطة العربية آنذاك"[2].

تُعد المفارقة المألوفة من المفارقات التي تميزت بها قصائد إبراهيم، و ذلك في قوله:

مثـــــل القـــــول لا يؤيـــــده الفعْـــــ ـلُ أزاهيـــــــر لا يفـــــــوح شـــــــذاها[3]

"و هي مفارقة تشبّه (الشيء) موضع السخرية بشيء غاية في الانحطاط والرداءة والهبوط"[4].

بعد أن تعب الشاعر من إلقاء النصائح المتواصلة وحثه الزعماء على الوحدة، وعدم الركون إلى السياسة التي ستفرق بينهم وبين عامة الشعب و ستنبذهم بعيدا عن الأرض الثابتة التي يمكثون عليها إلى أرض لم يشهدوا كينونتها وماذا ستخفي لهم في الغد الموعود، يعود طوقان كالمعلم في صفه وبين تلاميذه يوجه زعماء قومه ويخاطبهم بلسان الآمر لهم وما عليهم سوى تنفيذ ما يُلقى من أوامر، يقول في قصيدة (رثاء الشيخ سعيد الكرمي):

(البحر الخفيف)

مـــا لكـــم بعضـــكم يمـــزق بعضـــا أفـــرغتم مـــن العـــدو اللـــدود؟
اذهبـــوا فـــي الـــبلاد طـــولا و عرضـــا و انظـــروا مـــا لخصـــمكم مـــن جهـــود
و المســـوا باليـــدين صـــرحا منيعـــا شـــاد أركانـــه بعـــزم وطيـــد
شـــاده فـــوق مجـــدكم، و بنـــاه مشـــمخراً علـــى رفـــات الجـــدود
كـــل هـــذا اســـتفاده بـــين فوضـــى و شـــقاق، و ذلـــة، و هجـــود
واشـــتغال بالترهـــات و حـــب الـــ ـذات عـــن نـــافع عمـــيم مجيـــد
شـــهد الله أن تلـــك حيـــاة فَضّـــلت فوقهـــا حيـــاة العبيـــد[5]

[1] إسماعيل، عبد الله:إبراهيم طوقان في ذكراه الثانية و الأربعين،قراءة في شعره الوطني، مجلة الفجر الأدبي، آب/أيلول 1983، ع36/35، ص41.
[2] برزق، مروان محمد: الشاعر إبراهيم طوقان يملك نبوءة التشرد و النكبة، مجلة الموقف العربي، ص 140.
[3] طوقان، إبراهيم: الديوان، 56.
[4] طه، المتوكل: الساخر و الجسد، ص 116.
[5] المصدر السابق، ص 166.

فالشاعر ينظر إلى ما توصلت له هذه الأحزاب السياسية من خلافات ونزاعات أودت بالوطن إلى الهاوية، فبدلاً من إخماد نار النزاع والفرقة، أخذ بعضهم بإضرامها من جديد، ما تسبب في إحباط طوقان، ودفعه إلى كشف ما يجري وتنبيه الشعب وتعرية الخونة [1].

وفي ختام هذا القسم نستنتج بأن الزعامات التقليدية كانت من أهم عوامل التواطؤ مع الانتداب وضياع الوطن، فكانت سبباً من أسباب النظرة التشاؤمية لدى طوقان، لأن سعيه لتغييرهم وتوجيههم لم يجدِ نفعا في تعديل بوصلة قلوبهم المليئة بالشحناء وحب المناصب واهتمامهم بأمورهم الخاصة على حساب العامة المتعلقة بقضايا الأرض، كما أن انطواء هذه الطبقة على بعضها بعضاً واهتمامها بأمورها الشخصية التي لا تتجاوز الحصول على عضوية مجلس بلدي أو مركز حزبي وإهمالهم فئات المجتمع الأخرى كافة، أدى إلى غطرستهم وعدم احتواء القضايا المهمة على الساحة، وكأنما أصابهم العمى، فلم يبصروا إلا السياسة الممنهجة التي وضعها لهم الانتداب، فما باتوا يحلمون إلا بأمور جسدت أهدافا للانتداب والصهيونية، آلت إلى ضياع الأرض و تهجير ساكنيها.

[1] ينظر:الطريفي، يوسف عطا: إبراهيم طوقان حياته و شعره، ص 84.

رابعاً: الزعامات العربية

كان إبراهيم طوقان فطناً ومدركاً لما سيحدث على الساحة الفلسطينية خاصة، وعلى الساحة العربية بشكل عام، فكان النداء ينطوي تحت راية الأمة العربية جمعاء، وكأن هذا النداء يتجدد فينا كل عام ليذكرنا أن الأعداء يحيكون لنا المكائد في كل زمان ومكان، "وبذلاقة و رشاقة، كان إبراهيم يتغلغل بقلمه إلى صميم الأشياء فيزيح عنها الستر، ويبين ما خفى وراءه من حقائق مرة، ويا لها من مرارة يرسلها في شعره متألما (لمظاهر العبث) التي كان يراها تغلب على ميول الأمة"[1].

(البحر الوافر)

أمامـــــك أيهـــــا العربـــــي يـــــوم تشـــيب لهولـــه ســـود النواصـــي
و أنـــت، كمـــا عهـــدتك لا تبـــالي بغيـــر مظـــاهر العبـــث الرخـــاصِ
مصـــيرك بـــات يلمســـه الأدانـــي و ســـار حديثـــه بـــين الأقاصـــي[2]

فها هي فلسطين قد ضاعت كما تنبأ شاعرنا بذلك وأصبح الشعب مشرداً في بقاع الأرض قاطبة، فمسيرة الضياع لم تقتصر على أرض فلسطين وحدها، بل شمل ذلك البلاد العربية المجاورة، فما زالت رواية الخضوع والذل مستمرة وأصبحنا نتوق ليوم نتنفس فيه عبق الحرية ومذاق الانتصار الأزلي. "وإبراهيم لا يلوم الإنكليز على أفعالهم التي تؤول إلى تأمين مصلحتهم ما داموا أقوياء! فالقوي لا ينحني إلا أمام القوةّ! ولكنه يلوم العرب الذين يخدعون أنفسهم حينما يظنون أن الضعيف يستطيع أن ينال من القوي حقا من طريق المسالمة (السياسة)"[3].

و لعل من الأسباب التي أدت بالشعب الفلسطيني إلى عدم رد الكارثة أو منعها غياب الحاضنة العربية التي وقفت موقف المتفرج على ما ألمّ بالشعب الفلسطيني من ظلم و اضطهاد، وعدم إمداد الثوار الفلسطينيين بالسلاح والخبرة والتدريب، موقفهما هذا تجاه فلسطين أدى إلى هيمنة قوى الاستعمار على كثير من أقطار الوطن العربي، واتخاذ الأنظمة العربية موقفاً محايداً من ثورة 1936، ساعد في إجهاض الثورة مع المستعمر البريطاني [4].

---

[1] الطريفي، يوسف عطا: إبراهيم طوقان حياته و شعره، ص 27.
[2] طوقان، إبراهيم: الديوان ، ص 87.
[3] الملثم، البدوي: الوطن في شعر إبراهيم طوقان، ص 66.
[4] ينظر:طه، المتوكل: الساخر و الجسد، ص 26.

احتضن شعر إبراهيم طوقان العديد من القادة العرب والشعراء وغيرهم ممن تربعوا على منصة الاهتمام الخاصة بالشاعر وكان لهم دور بارز على مستوى الوطن العربي، ومن هؤلاء المناضلين الملك الحسين بن علي الذي قال فيه:

(البحر الخفيف)

رحمـــــــة الله عليـــــــه إنـــــــه غالـــــه اليـــــأس، و كـــــان الأمـــــلا
ويـــــح قـــــومٍ خـــــذلوه بعـــــدما أخـــــذوا الميثـــــاق ألّا يَخـــــذلا
شـــيمة الغـــدر بمـــن ينصـــرهم ذهبـــت يـــا (ابـــن علـــي) مـــثلا
آل بيـــت المصـــطفى لـــم تبرحـــوا تَـــرِدون المـــوت فـــي ظـــلّ العُـــلا
كـــادت الكـــأس التـــي فـــي قبـــرصٍ تُشـــبه الكـــأس التـــي فـــي كـــربلا[1]

يتبين لنا في الأبيات السابقة، أن إبراهيم لم ينسَ المناضلين من بني هاشم، الذين سجلوا دوراً فاعلاً في سبيل عزة العرب واستقلال بلادهم. فقد رثى طوقان الحسين بن علي[2] الذي غدر به الإنجليز ونفوه إلى قبرص في عام 1925، وغالبا ما كان إبراهيم يستغل مقطوعاته الرثائية ليذّكر بقضية فلسطين وبأحوال البلاد غير المطمئنة [3].

ولعل الدور البارز لهذا الزعيم العربي تمثل "على الصعيد العربي، فقد اتخذت مباحثات الإنجليز مع الشريف حسين في مكة طابعا مغايرا تتمثل في الوقيعة بين الشريف وتركيا عن طريق تزوير وثائق تثبت تدبير السلطات التركية لاغتياله وأولاده من جهة، وبالتلويح لوعود خلّابة لإنشاء خلافة عربية يتزعمها الشريف حسين نفسه إذا ساندهم ضد تركيا من جهة أخرى"[4]. ولكي يأخذ الاستعمار شكلاً شرعياً أمام الشعوب، بدأت الدول الاستعمارية بتنصيب الأنظمة على هذه الشعوب لتحقيق أهدافها التي تمثلت في الآتي:

-السيطرة على الثروات.

-تهجير اليهود العرب و غير العرب إلى فلسطين

[1] طوقان، إبراهيم: الديوان، ص 176.
[2] يوم الخميس الموافق 18 حزيران 1925 نزل (الحسين بن علي) إلى البارجة (دلهي) فأبحرت به إلى قبرص فنزل في ليماسول يوم 22 منه وأمضى في المنفى ست سنوات. وفي 3 حزيران 1931 اختاره الباري تعالى إلى الرفيق الأعلى وفي اليوم التالي نُقل جثمانه إلى القدس و دُفن بجوار الحرم الشريف.
[3] ينظر:الملثم، البدوي: إبراهيم طوقان في وطنياته و وجدانياته، ص 77-75.
[4] طه،المتوكل: الساخر و الجسد، ص19.

-تجهيل الشعوب العربية

-محاصرة حركات التحرر

-تعميق التجزئة العربية.[1].

ظل شاعرنا وفيا للقائد الحسين بن علي، ومما يدل على ذلك إنشاء قصيدة بحقه في ذكرى وفاته بعنوان (أطلقي ذاك العيارا)، وكأن الخطاب في هذه القصيدة جاء لشحذ همة الأمة العربية وضرورة التصدي للمستعمر البريطاني بكل ما أوتوه من قوة، يقول فيها:

(مجزوء الرمل)

احشـــــدي البيـــــد أســـــودا و امـــــلأي الشـــــام حقـــــودا

و وعـــــــودا و عهـــــــودا وبنـــــــــــوداً و بنـــــــــودا

أطلقـــي ذاك العيـــارا

المنايـــــــــا تتبـــــــــارى والأمـــــــــانيّ الكبـــــــــارا

طبّقـــــي الأرض انتصـــــارا و اعتـــــزازاً و افتخـــــارا

أطلقـــي ذاك العيـــارا

اغـــــدري غـــــدر القـــــويّ بالحســـــين بـــــن علـــــي[2]

لســـــتِ بالخـــــلّ الـــــوفي للحليـــــــــف العربـــــــــي

فـاملأي التـاريخ عـارا

أمتـــــي قَـــــدْكِ اصـــــطبارا فـــــاطلبي العـــــز ابتـــــدارا

و خـــــذي المجـــــد اقتســـــارا هـــــاجني الماضـــــي ادّكـــــارا

أطلقي ذاك العيارا؟[3]

[1] ينظر:طه، المتوكل: الساخر و الجسد، ص 19.
[2] الضمير يعود إلى بريطانيا العظمى.
[3] طوقان، إبراهيم: الديوان، ص 62.

و ليس ببعيد أن تكون قصيدة (أمتي) لعمر أبو ريشة كاملة انبجست من قصيدة إبراهيم (أطلقي ذاك العيارا) والتي بدأها بقوله:

(بحر الرمل)

أمتـــــي، هـــــل لـــــك بـــــين الأمـــــمِ منبـــــــرٌ للســـــــيف أو للقلـــــــم[1]

يطوف بنا شاعرنا إبراهيم في كل بقاع الوطن العربي، لينتقي من الأبطال من يمدحه ويفتخر به ليكون رمزا وقدوة لغيره من الزعماء السلبيين الذين لم يخدموا سوى الكراسي على حساب الوطن، ومن هؤلاء الأبطال الذين ذكرهم في شعره القائد عبد الكريم الخطابي[2]:

(مجزوء الخفيف)

فـــي ثنايـــا العجـــاج و التحـــام الســـيوف
بينمـــــا الجـــــوّ داج و المنايـــــا تطـــــوف
يتهـــــادى نســـــيم فيـــــهِ أزكـــــى ســـــلام
نحـــو (عبـــد الكـــريم) الأميـــــر الهُمـــــام
ريفنـــــا غابنـــــا نحـــن فيـــه الأســـود ريفنـــــا نحميـــــه
كلّنـــــا يعجـــــب بفتـــــى المغـــــربِ
كلنـــــا يطـــــرب لانتصـــــار الأبـــــي
أيـــن جـــيش العـــدا إن دعـــا للجهـــاد
أصـــــبحوا أعبُـــــدا بالســـــيوف الحـــــداد
ريفنـــــا غابنـــــا نحـــن فيـــه الأســـود ريفنـــــا نحميـــــه[3]

جاء نشيد عبد الكريم الذي تغنى به الشاعر "في الثورة التي أضرم نارها وأجج أوارها، عام 1924م بطل المغرب العربي الأمير عبد الكريم الخطابي، وشنّها غارة شعواء على دولتي البغي فرنسا

[1] أبو ريشة، عمر: الديوان، ص 7.
[2] (1882-1962) بطل ثورة الريف المغربي ضد الاستعمار الإسباني ثم الفرنسي للمغرب العربي، ينتمي لأسرة متدينة، والده عبد الكريم، درس في فاس و تخرج كأحد علمائها البارزين و تقلد منصب القضاء في المغرب. سجن الأب في أحد السجون الإسبانية لمناهضته الاستعمار و تحريضه على الاستقلال عن إسبانيا. انظر: ضاهر، زكي: أشهر القادة السياسيين من يوليوس قيصر إلى جمال عبد الناصر، ط2، دار الحسام، بيروت، 1992، ص 57.
[3] طوقان، إبراهيم: الديوان ، ص 194.

وإسبانيا، تسابقت كبريات صحف العالم إلى نشر أخبارها، وصنّف بعضهم الكتب والروايات في وصف بطولات المناضل العربي وجرأته ووقوفه في وجه الاستعمار، فنظم إبراهيم (نشيد بطل الريف) مفاخراً بالبطل الحلاحل الذي صفع الظلم وأفزع الظالمين بحفنة من المناضلين المؤمنين"[1]. فقد كان طوقان يطالع الصحف العربية والعالمية ويتتبع أخبار الثورة في دول شمال أفريقيا ضد المستعمرين الفرنسيين والإسبانيين، وكان مستبشراً بدور الزعيم العربي الذي يقود شعبه إلى التحرر والاستقلال ورفض الذل والعبودية، مما دفعه إلى كتابة قصائده الحماسية التي أثرت في نفوس الشباب العربي في كل من مصر وسوريا ولبنان.[2].

ومن الشعراء العرب الذين وضعهم إبراهيم في منزلة القادة الأفذاذ وأعجب بهم وبشعرهم الشاعر المصري أحمد شوقي، فقد وجه شاعرنا رسالة إلى شوقي في قصيدته (حطين) كان مضمونها حثه على بث الوعي في الشعوب وشباب الأمة من خلال شعره، والتنبيه من الغفلة الوطنية وعدم التسليم للاستعمار البريطاني والحركة الصهيونية، وقد "نظمها إبراهيم يوم عزم أمير الشعراء المرحوم أحمد شوقي بك على زيارة فلسطين وأخذ الأدباء يعدون العدة لإقامة مهرجان له. و لكن الزيارة لم تتم. و قد رمى إبراهيم من وراء هذه القصيدة إلى إثارة أمير الشعراء لينظم شعرا في فلسطين وفي قضيتها"[3]:

(مجزوء الكامل)

أهـــــلا بـــــرب المهرجـــــان أهـــــلا بنابغـــــة البيـــــان

ملـــــك القلـــــوب المســـــتقل بعرشـــــها، و الصـــــولجان

أهـــــلا (بشـــــوقي) شـــــاعر الْـــــ فَصـــــحى و معجـــــزة البيـــــان[4]

استهل طوقان قصيدته بمدح الشاعر أحمد شوقي تمهيدا لمواضيع أخرى سوف يطرحها على الملأ، لاستثارة الإحساس المرهف لدى الشاعر شوقي وشحذ همته وشعره لصالح الأمة. فقد كانت هذه الزيارة ستعقد عام 1928م وهدف الشاعر من ورائها إلى إثارة مشاعر شوقي لينظم شعرا في فلسطين وفي قضيتها التي لم يروِ التاريخ أظلم منها قضية.[5]

---

[1] الملثم، البدوي: الوطن في شعر إبراهيم طوقان، ص 27.
[2] ينظر:الطريفي، يوسف عطا: إبراهيم طوقان حياته و شعره، ص 86، 87.
[3] طوقان، إبراهيم: الديوان ، ص 67.
[4] المصدر السابق، ص 67.
[5] انظر: الملثم، البدوي، إبراهيم طوقان في وطنياته و وجدانياته، ص 25، 26.

ثم يُكمل شاعرنا ما بدأ به ويجلب ذكريات من عبق التاريخ الذهبي الذي سطر فيه المسلمون أسمى البطولات حينما تمسكوا بالمبادئ والقيم الأصيلة، وينبش هذا التاريخ لينير الذاكرة من جديد للاعتزاز بالأبطال، ومنهم الأسطورة المسلم صلاح الدين الأيوبي، فيقول:

(مجزوء الكامل)

عـــــرّج علـــــى حطـــــين واخْـــــ شـــــع يُشـــــجِ قلبـــــك مـــــا شـــــجاني
و انظـــــر هنالـــــك هـــــل تـــــرى آثـــــار (يوســـــف)[1] فـــــي المكـــــانِ
أيقِـــــظ (صـــــلاح الـــــدين) رَب بِ التـــــاج و الســـــيف اليمـــــاني[2]

فإبراهيم يتمنى من شوقي أن يستثير همم الشباب من خلال شعره، للبحث عن قائد هُمام بين الجموع يتمثل بشخصية القائد صلاح الدين، فقد غدونا في زمن نحتاج فيه إلى أمثاله الأفذاذ لقلة السالكين في طريق الانتماء والإخلاص الوطني.

و يأتي طوقان بالمبررات التي تدعوه دوما إلى لمّ شمل الأمة وإعادة صياغتها على الوحدة الوطنية من جديد، للتحذير من الخطر الذي سيتدفق إليها من (الأشعبين) اللذين تمثلا بالانتداب البريطاني والحركة الصهيونية حينما قال مخاطبا الشاعر أحمد شوقي:

(مجزوء الكامل)

ذهـــــب الـــــذين عهـــــدتهم لا يصـــــبرون علـــــى الهـــــوان
فـــــي مصـــــر يطمـــــع أشـــــعبٌ و هنـــــا تبـــــدَّى أشـــــعبان[3]

كان لمصر مكانة كبيرة لدى شاعرنا، فقد احترم مثقفي شعبها من القادة والشعراء، و قد كان لها "نصيب كبير في شعر إبراهيم طوقان، مصر التي أحبها فقد أكثر من ذكرها في شعره، فحزن لحزنها، وفرح لفرحها وانتصاراتها، وعندما توفي (سعد زغلول) حزن شاعرنا، وانطلق من عقاله، فقال قصيدته الدالية بعنوان (سر الخلود) يمجد زعيم مصر، و باعث نهضتها، و قد جاءت القصيدة مفعمة بالعواطف و الحب، و قد بدأها بذكر سعد زغلول"[4].

---

[1] يوسف: يوسف بن أيوب الملقب بصلاح الدين الأيوبي.
[2] طوقان، إبراهيم: الديوان ، ص 68.
[3] المصدر السابق، ص 70.
[4] الطريفي، يوسف عطا: إبراهيم طوقان حياته و شعره، ص 87.

(بحر الكامل)

هـل كـان سـعد كمـا علمنـا فـي الـورى ... فيمـــوت؟ كـــلا، إن ســـعد لأوحـــد
هبـــت عواصـــف نعيـــه مصـــرية ... فـــإذا بهـــا شـــرقية... تتمـــرد
فجعـــت بنـــو مصـــر بفقـــد زعيمهـــا ... الله أكبـــــر أي أروع تفقـــــد
يـــا ســـعد يـــا بـــن النيـــل رنـــق مـــاءه ... ثكـــلُ البنـــين وهـــل كســـعد يولـــد
مصـــر التـــي فقـــدتك قلـــب خـــافق ... و الشـــرق أضـــلعه التـــي تتوقـــد[1]

كان سعد زغلول "أول رئيس لوزارة شعبية بعد الاستقلال، وأول زعيم مصري ألقى خطبة العرش الأولى حين افتتح الملك فؤاد البرلمان في 15 مارس سنة 1924. تولى رئاسة مجلس النواب حتى توفي في 23 أغسطس سنة 1927 وهو في السابعة و الستين من عمره"[2].

يكمل شاعرنا مادحاً بطولة سعد زغلول ومتأثراً لفراقه أرض مصر، لأن فقدانه خسارة لمصر والعالم العربي ولأحرار العالم أجمع:

(بحر الكامل)

يـــا ســـعد شـــأنك و البطولـــة إنهـــا ... تجثـــو لـــديك و أنـــت أنـــت الســـيد
الله فـــي ســـبع و ســـتين انطـــوت ... و المـــوت مضـــاء العزيمـــة يطـــرد
يـــا حســـرتاهُ علـــى الـــبلاد يقيمهـــا ... غـــدر المنيـــة بـــالرئيس ويقعـــد
زفراتهـــا زفـــرات مصـــر تصـــدّعت ... مـــن هـــولهن قلوبنـــا و الأكبُـــد[3]

ما زالت جولة شاعرنا الذهبية حول الوطن العربي مستمرة لاصطياد أروع السِيَر التي سطرها القادة والزعماء العرب آنذاك، وهذه المرة من العراق الشقيق، فقد رثى إبراهيم عبد المحسن الكاظمي في قصيدته (رثاء أبي المكارم):

(بحر الوافر)

(أبـا المكـارم) قـم فـي الحفـل مـرتجلا ... مُهَـذْباتِك[4] لـم تصـقل بتهـذيب[5]

---

[1] الطريفي، يوسف عطا: إبراهيم طوقان حياته و شعره ، 87، 88.
[2] العقاد، عباس محمود: سعد زغلول زعيم الثورة، ط1، بيت الياسمين للنشر و التوزيع، القاهرة، 2017، ص 14.
[3] الطريفي، يوسف عطا: إبراهيم طوقان حياته و شعره، ص88.
[4] ينظر: إبن منظور: لسان العرب،ج1، مادة هذب، المهذب من الرجال: المُخلص النقي من العيوب، ورجلٌ مهذب أي نقي الأخلاق، ص 782.
[5] كان الشاعر الكاظمي رحمه الله يرتجل الشعر ارتجالا كلما عنّ له.

و أضـــرم النـــار إن القـــوم هامـــدة ... قلـــوبهم، ذل قلـــب غيـــر مشـــبوب

و انفـــخ إبـــاءك فـــي آنـــافهم غضـــبا ... فقـــد تحـــرك أصـــنام المحاريـــب

تمكّـــن الـــذل مـــن قـــومي فـــلا عجـــب ... ألّا يبـــــالوا بتقريـــــعٍ و تأنيـــــب

مـــا أشـــرف العـــذر لـــو أن الـــوغى نشـــرت ... أشـــلاءهم بـــين مطعـــونٍ و محـــروب

لكـــن دهـــتهم أســـاليب العـــداة و هـــم ... ســـاهون لاهـــون عـــن تلـــك الأســـاليب

و يقنعـــــون بمبـــــذول يلوّحـــــه ... مســـــتعمروهم بتعبيـــــدٍ و تقريـــــب[1]

ففي "عام 1935م، فجعت (الضاد) أم اللغات بشاعرها الفذ المرحوم عبد المحسن الكاظمي[2]، فأقيمت في يافا تخليدا لذكراه حفلة تأبين كبرى كان من خطبائها المرحومون: إسعاف النشاشيبي وإبراهيم عبد القادر المازني وأسعد داغر والشاعر (أبو سلمى)[3]، وفيها تلا إبراهيم مرثية"[4].

كما قد عتب إبراهيم طوقان على العديد من الشعراء العرب الذين تأثروا بقضايا ضربت العالم ولم يتأثروا بقضية فلسطين السجينة بين فوهات الظلم الاستعماري والكيد الصهيوني، فهو عاتب على "حافظ إبراهيم الذي هزّته أحداث هنا وهناك حتى فاضت أحزانه على زلزال اليابان، ولم يحرك شاعريته زلزال عربي على حدود مصر، زلزال المستعمر والمحتل في فلسطين، وعاتب أيضا على خليل مطران الذي أثاره نيرون، ولم يثر ظلم الصهاينة شعره وحنقه، لقد أثار طوقان موقف شوقي وحافظ و مطران وغيرهم من الشعراء إلا أنه تحدث عن هؤلاء كنموذج لشعراء يعاصرون الحدث الفلسطيني ولا تهتز جوارحهم وأشعارهم له"[5].

في هذا النطاق لا ننسى القادة الشرفاء داخل الوطن الذين سطروا أروع المواقف البطولية أثناء حياتهم ورفضوا الاستكانة والذل للمستعمر وسياسته الظالمة، ومنهم من تناولهم إبراهيم طوقان في شعره كالشيخ عبد القادر المظفر الذي حُكم عليه بالسجن أربعة شهور بسبب رفضه توقيع الكفالة، ولا تغيب عن أذهاننا صورة القادة الثلاثة الذين ضحوا بأرواحهم من أجل الوطن في قصيدة (الثلاثاء الحمراء) وهم محمد جمجوم وعطا الزير وفؤاد حجازي. وقد أعجب طوقان بشخصية الزعيم الهندي (غاندي) وموقفه

---

[1] طوقان، إبراهيم: الديوان ، ص 167، 168.

[2] من فحول الشعراء العراقيين ولد في عام 1870 و هتف بذكر الحرية في رسائل ألفها و قصائد نظمها، فأصابه ما يصيب دعاة الحرية في بلاد الاستبداد من كيد و أذى، و حاق به من الخطر من كل جانب فلاذ بالوكالة الإيرانية في بغداد وهاجر من وطنه، العراق، عام 1897 إلى إيران و الهند و انتهى به المطاف إلى القاهرة عام 1899 و توفي فيها عام 1935 و هو آية ف ارتجال الشعر الجيد.

[3] الشاعر الفلسطيني عبد الكريم الكرمي

[4] الملثم، البدوي: الوطن في شعر إبراهيم طوقان، ص 83.

[5] الطريفي، يوسف عطا: إبراهيم طوقان حياته و شعره، ص 89.

الصارم من الانتداب البريطاني في بلاده ورفضه للذل والخضوع، يقول الشاعر في قصيدة (اشتروا الأرض تشتريكم من الضيم):

(بحر الخفيف)

حبـــذا لـــو يصـــوم منـــا زعـــيم مثـــل (غنـــدي) عســـى يُفيـــد صـــيامه
لا يصـــم عـــن طعامـــه... فـــي فلســـطين يمـــوت الـــزعيم لـــولا طعامـــه
ليصـــم عـــن مبيعـــه الأرض يحفـــظ بقعـــةً تســـتريح فيهـــا عظامـــه
بـــارك الله فـــي حـــريص علـــى الأرض غيـــورٍ يُنهـــى إليهـــا اهتمامـــه[1]

يعقد طوقان مقارنة بين الزعماء العرب الذين اعتادوا على القول والشعارات الرّنانة وغاندي الزعيم الهندي الذي يقول ويفعل، ويدعو الشاعر زعماء بلاده إلى الاقتداء بغاندي الذي نذر أن يصوم مدى الحياة إن لم تُغيّر بريطانيا سياستها الممنهجة في بلاده[2]. وقد قيلت هذه القصيدة "حين أنشئ صندوق الأمة سنة 1932م لإنقاذ أراضي فلسطين من البيع لليهود، وحقيقة الأمر أن إبراهيم لم يكن مقتنعا بالقائمين على هذا المشروع، فنظم هذه القصيدة، و ربما ندم على نظمها كما ورد في كتاباته، ونُشرت في جريدة فلسطين بإمضاء أبو جعفر"[3].

كان إبراهيم يمتلك سلاحا قويا في توحيد السواعد، فإضافة إلى القصائد التي شكلت نموذجا حيا للدفاع عن الوطن، وبث روح النخوة في قلوب أهل العروبة، لا نستطيع أن ننكر دور النشيد الوطني الذي حرص إبراهيم على انتشاره، فقد حمل هم الأمة العربية، وتكفل ببث قصائد الوعي والوطنية في نفوس العرب، فكان أسلوب الأناشيد من الأساليب الناجحة والتي لاقت إقبالاً لدى فئة الشباب، والتي ما زلنا نرددها إلى يومنا هذا[4]، ومن الأمثلة على الأناشيد الرائعة التي احتوت عليها جعبة شاعرنا صاحب الذاكرة اليقظة نشيد (موطني) والذي استهله بهذه الكلمات:

مـــــــوطني الجلال و الجمال و السناء و البهاء فـــي ربـــاك
و الحياة و النجاة و الهناء و الرجاء فـــي هـــواك
هـــــــــل أراك
ســـالما منعمـــا و غانمـــا مكرمـــا

[1] طوقان، إبراهيم: الديوان ، ص 53.
[2] الملثم، البدوي: إبراهيم طوقان في وطنياته و وجدانياته، ص 67، 68.
[3] الطريفي، يوسف عطا: إبراهيم طوقان حياته و شعره، ص 313.
[4] شراب، محمد حسن: شعراء فلسطين في العصر الحديث، ص 24.

هـــــــــل أراك فـــــي عـــــلاك

تبلـــغ الســـماك

مـــــــــوطني[1]

مما سبق، يتضح لنا دور الزعامات العربية وموقفهم من قضية فلسطين، فمنهم من كان يُمثل القدوة في بلاده و لم يستسلم لهوان المستعمر وذلّه فكان نموذجاً إيجابياً لدى طوقان في اتخاذه قدوة في صنع القرارات الوطنية الداخلية، وبعضهم الآخر لم يخدم القضية الفلسطينية بكلمة واحدة ولم يسجل موقفاً مشرفاً يشهد له تضامنه مع قضية فلسطين بعد رحيله، وربما يرجع ذلك إلى الخوف والسيطرة الخارجية للبلاد العربية الواقعة تحت الحكم البريطاني وسياسته الطاغية فيها، فالشعراء الذين لم يكتبوا قصائد تؤيد القضية الفلسطينية وتدافع عنها –وخاصة المصريين منهم- كانوا يعيشون في مصر تحت الحكم البريطاني، ونصل في نهاية المطاف إلى نتيجة حتمية في أن من يصدق الأجنبي سوف يخسر خسارة عظيمة في النهاية، ولو عقدنا مقارنة بين واقع الأمس أيام طوقان والانتداب البريطاني وواقع اليوم ووعود أمريكا وإسرائيل لوجدناه مشابها إلى حد كبير، حيث أصبح الشعب يُعاني من خسارة تلو الأخرى سواء في مجال الحقوق الشخصية وعيشه كمواطن ينتمي لفلسطين التاريخية أو حق في الأرض وتقرير المصير.

[1] المصدر السابق، ص 191.

خامساً: السماسرة

ابتُليت فلسطين بفئة مارقة من الشعب تمثلت بالدلالين والسماسرة، الذين كانوا كالشوكة القاسية التي طعنت خاصرة الوطن والشعب العربي الفلسطيني من أجل إرضاء رغباتها، غير آبهة بما يؤول إليه الوطن من خراب وضياع يهوي به نحو الفناء، فها هو شاعرنا يعرفنا على هذه الفئة التي باعت كرامتها من خلال قصيدة يوجهها إليهم حيث يستثنيهم من الوطنية في قصيدة (إلى بائعي البلاد):

(البحر البسيط)

بـــاعوا الـــبلاد إلـــى أعـــدائهم طمعـــاً ... بالمـــــال لكنمـــــا أوطـــــانهم بـــــاعوا...
قـــد يُعـــذرون لـــو أن الجـــوع أرغمهـــم ... و الله مـــــا عطشـــــوا يومـــــا ولا جـــــاعوا
و بُلغـــة العـــارِ عنـــد الجـــوع تلفظهـــا ... نفـــسٌ لهـــا عـــن قبـــول العـــار ردّاع
تلـــك الـــبلاد إذا قلـــت: اســـمها "وطـــن" ... لا يفهمـــــون، و دون الفَهـــــم أطمـــــاع[1]

يصور الشاعر الأخطار المتوقع حصولها إذا ما ظل معظم المارقين من السماسرة يبيعون الأراضي، وهم بذلك يشكلون عوناً للعدو من خلال تحقيق مطالبه وأطماعه. [2]، فقد كان السماسرة "هماً ثقيلاً على إبراهيم طوقان، فقام ينشد قصائد لاهبة تمور بالغضب الشديد عليهم ويعرّيهم ويذكرهم بمطامعهم، وأن هذا الذهب اللامع لا يكون إلا دماراً لأن العدو سوف يستولي على الأوطان إن استمر هذا الحال"[3]. فطوقان على صراع مستمر مع هذه الفئة من أصحاب النفوس الخربة يُقرعها باستمرار، فقد عمدت المؤسسة الصهيونية من خلالهم إلى الاستيلاء على الأرض الفلسطينية بشتى السُّبل [4].

نلاحظ في البيتين الأول والثالث اشتمالهما على نوع من أنواع السخرية والمفارقة التي امتاز بهما شعر إبراهيم طوقان وهي السخرية من صاحب الفعل أو من الفعل أو من الواقع، عن طريق الضحك منه، أو التهكم عليه، أو التقليل من شأنه، أو إبراز المفارقة الكامنة فيه، من خلال المفارقة اللفظية أو توجيه النصيحة لأن يستمر في عمله قناعةً بأنه لن يتراجع أو لأنه حالة ميئوس منها أو من خلال المبالغة والتهويل والتضخيم[5].

---

[1] طوقان، إبراهيم: الديوان ، ص 51.
[2] ينظر:الملثم، البدوي: الوطن في شعر إبراهيم طوقان، ص 71.
[3] الطريفي، يوسف عطا: إبراهيم طوقان حياته و شعره، ص 329.
[4] ينظر:أبو خشان، عبد الكريم: الأنا و الآخر عند إبراهيم طوقان، مجلة الشعراء، صيف 1998، ص 131.
[5] انظر: د.سي.ميويك: المفارقة و صفاتها، ص 67، 68.

يعقد إبراهيم في الأبيات اللاحقة من القصيدة ذاتها مقارنة بين الفلاح الفلسطيني الذي عشق الأرض وعشقته و ذاك اليهودي الذي تستنكر الأرض هويته وتبقيه غريبا منبوذا عنها، ويوجه الشاعر النصيحة تلو الأخرى لهؤلاء السماسرة علهم يستيقظون من سبات أحلامهم الرديئة:

(بحر البسيط)

أعــداؤنا، منــذ أن كــانوا، (صــيارفةً) و نحــن، منــذ هبطنــا الأرض، (زُراعُ)
لــم تعكســوا آيــة الخــلاق، بــل رجعــت إلــى اليهــود بكــم قربــى و أطبــاعُ
يــا بــائع الأرض لــم تحفــل بعاقبــةٍ ولا تعلمــت أن الخصــم خــدّاعُ
لقــد جنيــت علــى الأحفــاد، وا لهفــي و هــم عبيــدٌ، و خُــدّامٌ، و أتبــاعُ!
وغــرّك الــذهب اللمــاع تحــرزه إن الســراب كمــا تدريــه لمّــاعُ
فكّــر بموتــك فــي أرض نشــأت بهــا و اتــرك لقبــرك أرضــاً طولهــا بــاعُ[1]

يواصل إبراهيم تصوير الواقع الذي ينتظر البلاد من وراء البيع، ويحذر قومه من الشر الذي سيلتهم الأخضر واليابس، وإن "تسميته لهم (ببائعي البلاد) تتجاوز مجرد التعريض بفعل شائن أقدمت عليه شرذمة من الناس، إنه يصفهم بمخالفة الطبيعة التي فطروا عليها، ويخرجهم بالتالي من حظيرة (نحن) الفلسطينية والعربية، وذلك حين يصنف معسكر الأعداء (اليهود) بأنهم (صيارفة) ولا يعرفون الأرض إلا إذا كانت في نهاية المطاف مصدراً لتحصيل الذهب والثروة، وفي المقابل فإن (نحن) الفلسطينية العربية هي أقرب إلى الأرض، بل هي مادتها ووجهها الذي ترتديه"[2]، وذلك إن دل فعلى ارتباط العربي الفلسطيني بالأرض من خلال الطقوس والعادات التي اعتاد على ممارستها كالزراعة والحراثة والأغاني التراثية المرتبطة بالانتماء الجذري للأرض، في المقابل نجد أن اليهود لم ينشغلوا بالزراعة بل بمهن أخرى مختلفة.

يؤكد طوقان أن العلاقة التي تربط بائع الأرض بالعدو هي علاقة راسخة في الجذور التي تمتد إلى الأصل والنسب ذاته، ورأى الشاعر أن الخلاص من هذه الفئة شرط من شروط حرية المواطن لأنهم آثروا مصالحهم الشخصية على مصالح الوطن. [3]

[1] طوقان، إبراهيم: الديوان ، ص 51، 52.
[2] أبو خشان، عبد الكريم: الأنا و الآخر عند إبراهيم طوقان، مجلة الشعراءن صيف 1998، ص 131.
[3] ينظر:أبو خشان، عبد الكريم: الأنا و الآخر عند إبراهيم طوقان، مجلة الشعراء، صيف 1998، ص131.

(بحر البسيط)

لـــم تعكســـوا آيـــة الخـــلاق بـــل رجعـــت إلـــى اليهـــود بكـــم قربـــى و أطبـــاعُ[1]

وإذا ما أنعمنا النظر في الكلمات التي أضافها إبراهيم إلى الأبيات الشعرية السابقة (لم تحفل بعاقبة، لقد جنيت، غرّك الذهب، فكّر بموتك، اترك لقبرك)، فندرك مدى الحزن والألم الذي يعصف بقلب الشاعر جراء محاولات السماسرة وبيعهم للأراضي، "ومما عمّق حزن إبراهيم، هو أن بليّته مزدوجة ومركبة، بمعنى أن لحزنه رافدين، أولهما مرضه العضال، وثانيهما الواقع المأساوي الذي تعيشه فلسطين وشعبها من احتلال وانتداب وسماسرة وزعماء. ولذلك نجد سخرية إبراهيم مركزة حول موضوعات هذين الرافدين، فيما تكاد السخرية تخلو من قصائده الغزلية ومراثيه وبعض الموضوعات الأخرى في ديوانه. و لهذا أيضا نجد الإطار المأساوي يكتنف قصائده تلك. بلغة أخرى، إذا التقى الوعي (وعي الشاعر) بالعجز (عجز الشاعر) فإنما ينتج أول ما ينتج الإحباط (الصمت، الانتحار، طلب الموت، الهروب) أو الجنون و الإدمان، أو السخرية و السخط"[(2)].

لم تنجح محاولات إبراهيم طوقان في ردع السماسرة عن ألاعيبهم اللاوطنية، فقد أصبحوا يسبحون في وحل العار والهزيمة والمرض النفسي الذي انتابهم جراء بيع الأرض وقبض ثمنها، وحين لا تجدي النصائح الثمينة شيئا في قلوب عشقت الهزيمة، كان لا بد لشاعرنا من أن يخرج من ثوبه لكي يعرّي هؤلاء المرتزقة بلهجة ملؤها الغضب وعدم الرضا في قصيدته التي أسماها باسمهم (السماسرة):

(بحر الكامل)

أمـــا سماســـرة الـــبلاد فعصـــبة عـــارٌ علـــى أهـــل الـــبلاد بقاؤهـــا
إبلـــيس أعلـــن صـــاغرا إفلاســـه لمـــا تحقـــق عنـــده إغراؤهـــا
يتنعّمـــــون مكـــــرمين، كأنمـــــا لنعـــيمهم عـــم الـــبلاد شـــقاؤها
هـــم أهـــل نجـــدتها، و إن أنكـــرتهم و هـــمُ، و أنفـــك راغـــم، زعماؤهـــا
و حماتُهـــا، و بهـــم يـــتم خرابهـــا و علـــى يـــديهم بيعهـــا و شـــراؤها

[1] طوقان، إبراهيم: الديوان ، ص51.
[2] طه، المتوكل: الساخر و الجسد، ص 85، 86.

و مـــن العجائـــب إن كشـــفت قـــدورهم أن الجرائـــــد، بعضـــــهن، غطاؤهـــــا[1]

كيـــف الخـــلاص إذا النفـــوس تزاحمـــت أطماعها، وتدافعـــــت أهواؤهـــــا[2]

تأتي هذه القصيدة رد فعل من طوقان لسماسرة الأراضي، الذين شكلوا مرضاً وعاملاً أساسياً من عوامل ضياع البلاد، ومما كان يغيظه منهم تظاهرهم بالخوف على مصالح البلاد والعباد، وحقيقةً ما هم إلا لصوصاً ساعدوا على تهويد البلاد [3].

يظهر في البيت الأول والثاني نوع من أنواع السخرية والمفارقة، ألا وهو السخرية من صاحب الفعل أو من الفعل أو من الواقع، وقد بينت المقصود بذلك فيما تقدم من شرح، فقد نظر شاعرنا إلى السماسرة نظرة تهكم وسخرية ووصفهم بالعصبة، هذه العصبة بدورها تشكل عاراً على أهل البلاد إن بقيت فيما بينهم، والعُصبة هي "جماعة ما بين العشرة إلى الأربعين. قال الأخفش: و العُصبة و العِصابة جماعة ليس لها واحد"[4]، وقد وردت كلمة عصبة في القرآن الكريم في سورة يوسف، يقول الله تعالى: **{إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ}[يوسف:8].**[5]

إذا ما أنعمنا النظر جيدا في شعر إبراهيم طوقان، فسنرى صورة الساخر والضحية في نصوصه الشعرية، "ومن المفارقة أن تكون الضحية، هنا، هي الساخر، أما (الضحية) فهي السمسار أو الانتداب أو الاحتلال، أي أن (الضحية) ليست ضحية بقدر ما هي الجلاد. ولهذا لم تستحق هذه الضحية التعاطف. وينتفي في هذه الحالة التمثل أو الشفقة. فهي تستحق ما وقع عليها أو لها، من وجهة نظر الشاعر ومن يقف خلفه أو ينظر من زاويته، لأن قيم (الضحية) هنا معادية ومرفوضة. "[6].

تنتاب شاعرنا مشاعر الحزن والخيبة من رجال البلاد الذين آثروا مصالحهم الشخصية على مصلحة الوطن الحبيب، فيوجه طوقان كلماته إليهم عسى أن تجدي نفعاً وتصل إلى أعماق قلوبهم المغلفة بحب المال والسعي وراء المناصب الكاذبة، فيقول صارخا متألما في قصيدته (يا حسرتا):

(بحر الكامل)

---

[1] الإشارة إلى بعض القصائد المأجورة التي كانت تدافع عن فئة من السماسرة و تستر خيانتهم.
[2] طوقان، إبراهيم: الديوان ، ص78.
[3] طه، المتوكل: الساخر و الجسد ، ص 317.
[4] ابن منظور: لسان العرب، مادة عصب، ج1، ص 605.
[5] يوسف: 8
[6] طه، المتوكل: الساخر و الجسد، ص 119.

يـا حسـرتا، مـاذا دهـى أهـل الحمـى ... فـالعيش ذل، و المصـير بـوار
أرأيـت أي كرامـة كانـت لهـم ... و اليـوم كيـف إلـى الإهانـة صـاروا
سَـهُل الهـوان علـى النفـوس فلـم يعـد ... للجـرح مـن ألـمٍ... و خـفّ العـارُ
همـدت عـزائمهم، فلـو شـبّت لظـى ... لتثيرَهـا فـيهم، فلـيس تُثـارُ
الظـالمُ البـاغي يسـوس أمـورهم ... و اللـصُ و الجاسـوسُ و السمسـارُ[1]

يخاطب الشاعر المجتمع كله في هذه القصيدة، ويُحذر من الطامة الكبرى التي ستحل في البلاد، ويحرض على الثورة للخلاص من المستعمر الظالم. ولعل أبيات هذه القصيدة جاءت مقتبسة من معنى البيت الشعري التالي:

مـن يهـن يسـهل الهـوان عليـه ... مـا لجـرح بميـت إيـلامُ[2]

أثناء قراءتنا لقصائد الشاعر إبراهيم طوقان، نلحظ طابع السوداوية متناميا بين الكلمات، ولا يمكن الفرار منه، ربما يعود ذلك إلى الوضع السياسي فوق الأرض من ناحية ومرضه الذي كان ملازما له من ناحية ثانية، وكأن الوضع الصحي الذاتي الداخلي مع الوضع السياسي الخارجي جعل السوداوية تتفشى على العلن، مما ساعد إبراهيم على تنبؤ أحداث سيئة وقعت في المستقبل القريب على الصعيد السياسي والشخصي أيضا، ويقول الدكتور عبد الله إسماعيل أحد أبناء النكبة معلقا على السوداوية في شعر طوقان: "و قد يعجب القارئ و ربما يذهل إذا ما أضفت عاملا كان سببا في شهرته وذيوع صيته، أعني شعره الوطني، ففي رأيي أن طابعه السوداوي القاتم قد عمل فينا نحن أبناء النكبة عملا مهماً في ما يشبه النفور أو الهروب منه لأنه دار في معظمه على أغراض نضيق بها وكثيرا ما اتهمنا بها الآخرون ولم نملك أن نكفّر عنها، فبيع الأرض والسماسرة وزعماء البلاد الدجالون القاعدون عن الجهاد المكتفون بالبيانات والاحتجاجات وعدوى التمزق السياسي والصحافة المتاجرة والتخاذل مسائل يحتفل بها ديوان إبراهيم أيما احتفال"[3].

كان من الطبيعي "أن يتجه إبراهيم في شعره، للواقع السياسي المضطرب، ومتعلقاته الهائجة والمنكسرة وظواهره المتعددة، لكن فكر إبراهيم، وهو يعالج هذا الواقع، كان يعاني من ثغرات عدة، جعلته فكرا خاصا بإبراهيم، لأنه لم يصدر عن عقيدة، ولم يشكل أيديولوجيا كاملة شاملة إلا أنه تميز بالنبوءة، كما أن قصائده الوطنية والسياسية التي عملت على تعرية أعداء الشعب، بكيفية ساخرة مرة، قد

[1] طوقان، إبراهيم: الديوان ، ص 84.
[2] المتنبي، أبو الطيب المتنبي: الديوان دار بيروت للطباعة و النشر، بيروت، 1983، ص164.
[3] إسماعيل، عبد الله: إبراهيم طوقان في ذكراه الثانية و الأربعين، قراءة في شعره الوطني، مجلة الفجر الأدبي، آب/أيلول 1983، ع 36/35، ص 38.

شاعت وأصبحت لافتة معروفة، لأنها قريبة من روح الناس وأحلامهم، مثلما أسست للقصيدة المقاومة. و يبدو أن ثمة أفكاراً وصوراً كررها إبراهيم في ديوانه، مراراً وتكراراً، بهدف التأكيد أو التنبيه أو التثوير، مما يشير إلى أن تلك الصور والأفكار كانت على أهمية عالية عند شاعرنا"[1].

عندما أصبحت السمسرة وبيع الأراضي وكأنها موضة منتشرة في البلاد، أصبح مواطنو الدول العربية المجاورة يحسدون الفلسطيني الذي يبيع الأراضي مقابل الأموال الطائلة والذهب، ولكن هيهات أن نوازن بين تراب الوطن النفيس الذي لا يفنى وبين المال والذهب الذي يذهب سُدى وبلا فائدة تُرجى، ففي قصيدة (نعمة)[2] يظهر الحسد العربي واضحا أمام العيان، خاصة ما قاله أهل بيروت حين سمعوا عن الثراء الزائف بسبب بيع بعض العائلات أراضيَ لليهود بأسعار عالية، فقال إبراهيم القصيدة الآتية موضحاً فيها ما يجري:

(بحر الطويل)

يقولــون فــي بيــروت: أنــتم بنعمــة ... تبيعــونهم تُربــا، فيعطــونكم تبــرا
شــقيقتنا مهــلا! متــى كــان نعمــة ... هــلاكُ ألــوف النــاس فــي واحــد أثــرى
و بــاذلُ هــذا المــال يعلــم أنــه ... يســلّم بــاليمنى إلــى يــده اليســرى
علــى أنهــا أوطاننــا .. مــا كنــوزهم؟ ... و أمــوالهم؟ حتــى تُســاوى بهــا قَــدرا
و لــو كــان قــومي أهــل بــأس و نخــوة ... إذن أصــبحت للطــامعين بهــا قبــرا
و لكــنهم قــد آثــروا الســهل مركبــا ... تســيّره الأهــواء و اجتنبــوا الــوعرا
و مــا حســرتي إلا علــى متعفــف ... يقــوم (لوجــه الله) بالنهضــة الكبــرى[3]

فأهل لبنان كانوا يغبطون أهل فلسطين المبالغ المرتفعة من الأموال، التي يأخذونها من اليهود مقابل الأراضي العربية التي باعوها لهم، وإبراهيم كان مدركاً بأن المال المدفوع للعرب، يسترده اليهود بطريقتهم الخاصة عن طريق اللهو والفسق والترف الذي لا قيمة له[4].

---

[1] طه، المتوكل: الساخر و الجسد، ص 311.

[2] كان اليهود الصهاينة يشترون الاراضي في فلسطين بأسعار عالية. دون أن يفطن العرب في فلسطين و في الأقطار المجاورة إلى أنهم كانوا يبيعون وطنا لا أرضا. و كان في بيروت من يحسد أهل فلسطين على ذلك الثراء الزائف.

[3] طوقان، إبراهيم: الديوان ، ص 86.

[4] ينظر: فرّوخ، عمر: شاعران معاصران، إبراهيم طوقان و ابو القاسم الشابي، ط1، المكتبة العلمية، بيروت، 1954، ص 114.

فقد كانت سياسة بيع الأراضي مرسومة وممنهجة من قبل دولة الانتداب البريطاني تمهيدا لتوطين اليهود في فلسطين، ومن أساليب هذه السياسة القذرة، تعلّق الفتاة اليهودية بالشاب العربي كأسلوب ابتزاز، حتى تسترد كل المال الذي أخذه فيعود فلا يجد الأرض ولا ثمنها .[1]

و تظل صورة السمسار مزينة بزخارف من السخرية اللاذعة التي يتفنن شاعرنا في استخدامها بين قصيدة وأخرى، ففي قصيدة (فلسطين مهد الشقاء) يسخر طوقان من الزعيم و السمسار الجبان و ُلبسه صفات الشهامة والعزة التي لا يستحق إلا نقيضها:

(مجزوء الكامل)

هـــــذا يُقـــــال لـــــه الزعيـــــ مُ كمـــــا يُقـــــال لـــــذاك حـــــر

و هنـــــاك سمســـــار الـــــبلا دِ فإنـــــه الشـــــهم الأغـــــر

فالمـــــدح مثـــــل القـــــدح تضْـــــ منـــــهُ لهـــــم خُضـــــرٌ و حُمـــــر[2][3]

تكررت كلمة (السمسار) في قصائد كثيرة في ديوان الشاعر، وهذا إن دلّ على شيء فعلى أهمية هذه الكلمة كموتيف يسعى الشاعر إلى استخدامه لتسليط الضوء عليه والحذر منه وتوعيته باستمرار، "وفي قصائد إبراهيم طوقان تكررت بعض الصور والأفكار والكلمات، الأمر الذي يشير إلى أن ديوان إبراهيم عرف الموتيف بالمعنى المشار إليه. وقد تكرر الموتيف عند إبراهيم بأوضاع متعددة، فكلمة (السمسار) تُعدّ الأكثر إلحاحا عليه، وبالإمكان معرفة سبب ذلك، إذ إن الأوضاع في فلسطين، ودور السماسرة في ضياع الأرض، هو الذي استفزّ إبراهيم وجعله يلاحق (السماسرة). و يأخذ (السمسار) أشكالا لغوية أخرى عند إبراهيم، تأكيدا على أن (السمسار) كان شخصا/ فكرةً يرفضها إبراهيم و يحاول تكرارها وتضخيمها وتأكيدها للتنبّه من خطورتها ولمحاربتها، وعليه جاء الموتيف بقصد مقصود ومع سبق الإصرار. والسمسار في ديوان إبراهيم قد يكون من (الزعماء) الذين، أيضا ورد ذكرهم عدة مرات في قصائده الوطنية والسياسية، ليكونوا الموتيف الآخر أو المعمّق لموتيف السماسرة"[4].

وبالإشارة إلى أهمية الموتيف في شعر إبراهيم، يمكن اعتبار "كلمة (دلالين)، (بيان)، (المخلصون)، (احتجاج)، (وعد بلفور)، (لطف وأفضال)، الانتداب والاحتلال ونبوءة الرحيل والتشريد، موتيفات

[1] ينظر: فرّوخ، عمر: شاعران معاصران، إبراهيم طوقان و ابو القاسم الشابي ،ص 105، 106.
[2] إشارة إلى ورق النقد الفلسطيني.
[3] طوقان، إبراهيم: الديوان ، ص 58.
[4] طه، المتوكل: الساخر و الجسد، ص 180179.

تجاور موتيف السماسرة وبيع الارض والزعماء، حيث تكررت غير مرة، وتهدف إلى التيقظ والتوعية، مثلما تشحن بالسخرية والمجابهة"[1].

وفي هذا القسم الأخير لا بد من الخروج بنتيجة جوهرية وهي أن ضياع الأوطان مقترن بدسائس داخلية تمثلت بوجوه لبست قناع الوطنية وهم السماسرة والدلالون الذين باعوا ضمائرهم وأوطانهم من أجل رغباتهم الرخيصة، ولأن شهوة المال تُعمي البصيرة والبصر، كنا نجدهم لا يستمعون لنداء ولا لخطاب وطني يوجههم للتيقظ والتنبه من الغفلة التي تسكنهم، فها هو ذا طوقان يُعرّيهم حتى يومنا هذا ويعدُّهم مسوّغاً تشاؤمياً تسبب في ضياع البلاد، وكأن السمسار الذي يلبس ثوب الوطنية قد لا ينحصر في زمن محدد بل نجده متواجدا في فترات لاحقة حتى يومنا هذا.

أرى أن طوقان قد بالغ في مسألة بيع الأراضي وموقفه من السماسرة، فإن كان معظم السماسرة قد وقعوا في فخ بيع الأراضي، لا يعني أن الآخرين اتبعوا خُطاهم، ولعل بيع الأرض من اخطر التهم التي نجح اليهودي في نشرها، وصدقها بعض العرب، وهي تهمة تبرئ اليهود من اغتصاب الأرض بالقوة، وبالوقت ذاته تنفي أحقية الفلسطيني بالدفاع عن الأرض التي باعها لليهود.

و أخيرا، لا بد أن نُحصي الميزات اللافتة التي تميز بها شاعرنا إبراهيم طوقان عن غيره من الشعراء، وخاصة فيما تعلق بمسألة استشراف المستقبل والتنبؤ به على جميع الأصعدة، الشخصية والوطنية والداخلية والخارجية، فقد كان يملك رؤية شفافة ولديه حس مستقبلي باحداث فلسطين والنكبة، وهذا الحس موهبة من الله تعالى رُزق بها إبراهيم بالرغم من صغر سنه آنذاك.

كما امتاز شاعرنا بحسه المستقبلي على الصعيد الوطني والشعبي، أيضا تنبأ بأمور أخرى احتوتها حياته الخاصة على الصعيد الشخصي فيما يتعلق بصحته وأسقامه التي لا شفاء لها، فقد تنبأ بموته وهذا ما حصل فعلا، "ولعل إبراهيم كان يستشعر قرب أجله وانقضاء عمره، بسبب هذا التراكم المرضي، الذي عبّر عنه في العديد من قصائده، وصدق حدسه"[2]، فها هو يُطل علينا في قصيدة (غادة إشبيلية) ببيتين شعريين نظمهما وهو في السابعة و العشرين من عمره وبعد تسع سنوات أدركته المنية، و كأنه يودعنا الوداع الأخير الذي لا مفر منه:

[1] طه، المتوكل: الساخر و الجسد، ، ص 180.
[2] المرجع السابق، ص 56.

(بحر السريع)

أرى الثلاثـــــين ســـــتغدو بيـــــه مُغيـــرةٌ أفراســـها فـــي اقتـــراب

و بعـــد عشـــرٍ يلتـــوي عوديـــه و ينضـبُ الزيـت ويخبـو الشـهاب[1][2]

و هنا، لا بد ان نتذكر الشاعر أبا القاسم الشابي الذي توقع موته قبل حدوثه، فهناك تشابه بين إبراهيم والشابي، " ومن أوجه التشابه بينهما أن كلا منهما كان يستطلع الغيب فيرى مصيره ويرثي ذاته ويشعر بدنو أجله، ومثل هذا التشابه كان بين إبراهيم والسياب إلى حد ما، تشابه في طول فترة المرض، والرحلات وجلسات الأصدقاء "[3]. يقول الشابي:

(بحر الخفيف)

نحـــن نتلـــو روايـــة الكـــون للمـــوْ تِ ولكـــن مـــاذا ختـــام الروايـــة

هكـــذا قلـــت للريـــاح فقالـــت ســـل ضـــمير الوجـــود كيـــف البدايـــة؟

و زهـــور الحيـــاة تهـــوى بصـــمتٍ محـــزن مضـــجر علـــى قـــدميًّا

جـــف ســـحر الحيـــاة يـــا قلبـــي البـــا كـــي فهيـــا نجـــرب المـــوت هيـــا[4]

[1] و لكن توفاه الله قبل أن يتم الأربعين فقد قضى نحبه و هو في السادسة و الثلاثين من عمره.

[2] طوقان، إبراهيم: الديوان ، ص 125.

[3] الطريفي، يوسف عطا: إبراهيم طوقان حياته و شعره، ص 144، 145.

[4] الشابي، أبو القاسم: الديوان، دار الكتب العلمية، بيروت، 2005، ص174، ص175.

الفصل الثاني

الحِس التفاؤلي في شعر محمود درويش

مسوّغات التفاؤل عند محمود درويش

أولاً: قراءة التاريخ

ثانياً: حركات التحرر

ثالثاً: عوامل الوحدة العربية و الزعماء القوميون

رابعاً: الدور الثقافي /الثقافة العربية الإسلامية

خامساً: العوامل الخاصة بالعدو الإسرائيلي /عنصريته و محاولة عدم إيجاد حل عادل للقضية

أولاً: قراءة التاريخ

اعتاد الفلسطينيون على التحدي في كل الأوقات على الرغم من الظروف الصعبة التي تعاني منها الأمة، فمن حق أي شعب محتل أن يوقد شمعة الأمل والحرية بخطوات ثابتة من التحدي والإصرار، كي ينير طريق العودة إلى البيت الفلسطيني الذي سنحتفظ بمفتاحه السحري غير آبهين بما يُلقى على مسامعنا من خطابات تقضم أرض الأجداد، وما البيت للشاعر محمود درويش إلا وطنه الأول الذي ترعرع فيه وخطا على عتباته أولى خطواته طفلا قبل قيام إعصار النكبة عام 1948م، ليفترق الحبيب عن الحبيبة الأم، أهي البروة يا محمود؟ أم هي أرض الجليل؟ أم هي فلسطين، كل فلسطين؟

لإنصاف الشعب الفلسطيني، كان لا بد من إكمال الحكاية في هذا الفصل لكي تتضح الصورة أكثر مع شاعر آخر، ففي العام الذي فارقنا فيه الشاعر إبراهيم طوقان، كُنا على موعد مع بزوغ فجر شاعر آخر. لم تخلُ بندقية طوقان من كلماته التي تبث الوعي و ضرورة المقاومة لأن هناك جنديا آخر قد ورثها عنه ليُعيد تعبئتها بكلمات أكثر وعيا ومقاومة و حُباً. في العام 1941م، ذهب نجم ليولد آخر، وما بين رحيل طوقان و تحقق مأساة النكبة، ولد محمود درويش ليصوغ لنا تفاؤله بزوال آلام النكبة في المستقبل القريب إن شاء الله تعالى، وكأن قدر الشعراء أن يشهدوا انتصارات الأمة وخيباتها وأن يصوروها شعرا للجمهور المتلقي...

انطلق محمود درويش في مشواره التفاؤلي بنشر بذور الأمل في قلوب قرائه في جميع أقطار العالم، موقنا بضرورة التغيير لصالح صاحب الحق الذي أحب أرضه وهُجر منها قسرا وعانى على مدى سبعين عاما من أمراض شتى ألمّت بجسده نتيجة الظلم والعذاب والتشريد، رؤية شاعرنا الإيجابية بدأت بحس يقيني أن ما من غزو أو احتلال على وجه هذه البسيطة إلا سينتهي عاجلا أو آجلا.

لعل أهم الحوادث التاريخية التي كان لها وضع خاص في ذاكرة درويش هو وقوع بلاد الشام تحت وطأة دولة الروم (الدولة البيزنطية) التي حُررت أراضيها وأُعيدت من جديد على أيدي المسلمين الفاتحين، "حيث كانت معركة اليرموك أسوأ هزيمة منيت بها الإمبراطورية الرومانية الشرقية، وأدت إلى انتهاء الحكم الروماني على سوريا إلى الأبد، حيث غادرها هرقل بعد شهر من أنطاكيا بطريق البر

إلى القسطنطينية مودعا سوريا و قلبه ينزف دما و يعصره الحزن"[1]، وهنا يقف الشاعر في قصيدة (عاشق من فلسطين) ليصرخ في وديان العالم لعل صوته يتردد إلى مسامع الأحرار:

و باسمك، صحتُ في الوديان

خيول الروم! .. أعرفها

و إن يتبدّل الميدان!

خُذوا حذرا ..

من البرق الذي صكته أغنيتي على الصوان

أنا زين الشباب، و فارس الفرسان

أنا. و محطم الأوثان

حدود الشام أزرعها

قصائد تطلق العقبان![2]

فالشاعر يعرف أعداءه جيدا ويحذر الشعب العربي منهم لأنهم عادوا من جديد بزيّ تنكري، فهو ينظر إليهم بعين البصيرة لا البصر، و لذلك قال خيول الروم عوضا عن جنود الروم وهنا يكمن رمز التناص التراثي التاريخي، والرؤيا حينما تتميز بالبعد البصري تكون أقرب إلى اليقين الصادق والحقيقة منه إلى الوهم، وهذا إن دل على شيء فعلى بسط هيمنة الأعداء على الوطن العربي من جديد، ولكن هيهات، فالشاعر يتربص لهم بالميدان، فهو زين الشباب و فارس الفرسان الذي يقذفهم بقصائد نارية بين الفينة و الأخرى. فشاعرنا يستعمل "ظاهرة التناص مع التاريخ والدين والأسطورة والأدب، ويلغي الحدود بين النصوص القديمة والحديثة إذ إنه يؤمن بأن هذه الظاهرة ترفده ليوسّع ويكثّف دلالات لغته الشعرية في سياقها الإشاري ويزيد شعره جمالا، كما يمنعه في الظروف السائدة من السلطة الإسرائيلية ورقابتها عند الضرورة"[3].

---

[1] زايد، فهد خليل: الحروب و التسويات بين الماضي و الحاضر،ط1، دراسة تحليلية، دار يافا العلمية للنشر، عمان، 2011، ص78.

[2] درويش ، محمود: الديوان ،ج1، ط1، رياض الريس للكتب و النشر، بيروت، 2005، ص93.

[3] زردیني، مرضية زارع، ظاهرة التناص في لغة محمود درويش الشعرية، مجلة التراث الأدبي، السنة الأولى، العدد الثالث، 1388، ص99.

يكرر درويش صرخته للمرة الثانية، ولكن هذه المرة كانت الصرخة علنية بدون سماع صدى صوته في الوديان، وكأن الصرخة الأولى كانت للعرب النائمين، فعندما لم تُجد صرخاته نفعا إذ لم يسمع سوى صدى صوته، أطلق صرخته الثانية علنا في وجه الأعداء، فهو الفارس العاشق الذي لا يخاف:

و باسمك، صحت بالأعداء:

كلي لحمي إذا ما نمت يا ديدان

فبيض النمل لا يلد النسور ..

و بيضة الأفعى ...

يخبئ قشرها ثعبان!

خيول الروم .. أعرفها

و أعرف قبلها أني

أنا زين الشباب، و فارس الفرسان![1]

يقف الشاعر كالفارس في ساحة المعركة متحديا أعداءه ومصرحاً أمام الملأ بأن وجوده مرتبط بوجود هذه الأرض منذ الأزل، ولا يحق لأي قوة كانت أن تنزعه من أرضه، ولعل الرموز التي أوردها الشاعر في القصيدة تدل على الدول المشاركة في الصراع العربي الإسرائيلي على الساحة العربية والدولية، وأبين ذلك من خلال الجدول الآتي:

الرمز	دلالته
بيض النمل	**الدول العربية**
بيضة الأفعى	**إسرائيل**
الأفعى	**دولة الانتداب البريطاني/بريطانيا حاليا**
الثعبان	**الولايات المتحدة الأمريكية**

[1] درويش، محمود: الديوان ، ج1 ، ص94.

فدرويش يتمنى أن يكون نسرا جارحا على أن يصل إلى حجم النملة التي تطؤها الأقدام، فهو يأبى النوم والغفلة لئلا يهاجمه الأعداء، وكأن النوم عن حماية الوطن يعني الاستسلام وتسليم الأرض لقمةً سائغة للطامعين، "ومنذ أن ارتفع صوت محمود درويش وهو يحلق في عالم الأمل والتفاؤل الثوري، ولا يتردى أبدا إلى قاع اليأس القاتم أو الهزيمة الساحقة. ذلك لأنه يرى بقلبه الكبير حقيقة المأساة، ويرى أن الظلم الذي وقع على العربي الفلسطيني لا بد أن يزول، وأن منطق التاريخ يؤكد ذلك، وأنه مهما كانت الظروف القاسية التي يمر بها الإنسان العربي في فلسطين المحتلة فإن عودة الأرض إلى أصحابها حلم ليس ببعيد. بل إنها حلم سوف يجسده الواقع في صورة مادية حقيقة في يوم من الأيام".[1]

ذكرت سابقا أن الأفعى هي رمز لدولة الانتداب البريطاني التي أنجبت إسرائيل لتعيش في أرض لا تملكها ولا تستحقها، وفي قصيدة "وشم العبيد" يؤكد درويش على مدى العلاقة الوثيقة التي تربط بريطانيا بحليفتها إسرائيل، وإصراره المتكرر على هزيمة ذلك المارد المتمثل بهما في المنطقة العربية لتدب الحياة في ربوعنا من جديد:

في ذات يوم .. أحسن العزف على

ناي الجذوع الهاوية.

أنوّم الأفعى

و أرمي نابها في ناحية

فتلتقي في رقصة جديدة .. جديدة

إفريقيا ... و آسيا![2]

المعنى المقصود هنا هو إعادة اللُحمة والتواصل البري بين أفريقيا وآسيا والذي قطعته إسرائيل. فبريطانيا تمثلت بالأفعى في المنطقة و نابها الذي يقضم الأخضر واليابس هو إسرائيل. ويتبين من خلال القصيدة أن العصا في يد الشاعر أو الفلسطيني الثائر تجعله الآمر الناهي وصاحب القرار النهائي على أرضه، وظهر ذلك بصورة واضحة من خلال استخدام الشاعر للأفعال المضارعة الدالة على التحدي وحسم الأمر لصالحه (أحسنُ، أنوّمُ، أرمي)، فدرويش كان يسعى دائما لبث روح الوعي والثورة في نفوس شعبه، ومما ساعده في ذلك مشاركته المستمرة في المناسبات والمهرجانات "التي كانت منبراً

[1] النقاش، رجاء: محمود درويش شاعر الأرض المحتلة، ط2، دار الهلال، ص89-90
[2] درويش ، محمود: الديوان ، ج1، ص119.

أساسياً في الخطاب السياسي للعرب في إسرائيل، في مرحلة الاتصال، الأمر الذي قد يسهم في الخطاب المباشر لأن الحدث في اللحظة التاريخية هو المسيطر على الذوات الفاعلة في حركة التاريخ، ومن ثم اتسم الخطاب الشعري بالانفعال أو بردّ الفعل في الغالب منه ".[1]

يمضي شاعرنا متفائلا بالرغم مما يحيط به من أشواك الماضي والحاضر التي وضعها الأعداء ليعوِّقوا حركته عن الوصول إلى المحبوبة-الأرض، ففي قصيدة (أبيات غزل) يتفاءل بميلاد فجر جديد لا يرتبط بماض وحاضر قد ضاق بهما ذرعا:

سألتكِ: هزي بأجمل كفّ على الأرض

غصن الزمان!

لتسقط أوراق ماضٍ و حاضر

و يولد في لمحة توأمان:

ملاك .. و شاعر!

و نعرف كيف يعود الرماد لهيبا

إذا اعترف العاشقان![2]

وهنا يبرز التناص الديني في هذه القراءة من خلال قصة السيدة العذراء عليها السلام، والتي عانت الآلام والاتهامات من قومها، وما كان منها إلا أن صبرت وتحمّلت هذه المعاناة التي ستوصلها بدورها إلى الخلاص وميلاد السيد المسيح عليه السلام، لتنتهي تلك الآلام على عتبة النبوة لابنها الوليد الذي أنطقه الله تعالى ليردع الاتهامات و الظلم عن أمه العفيفة، قال الله تعالى: **{وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا}[مريم:25]**[3]، فكان الأمر الإلهي بهز النخلة أول البشائر المؤيدة لها بالرغم من صعوبة تنفيذ الأمر، وهذا يدل على أن طريق النصر والأمان يحتاج لدافع التحدي والإصرار والتوكل على الله. ودرويش لا يريد الماضي الذي عانى منه الفلسطينيون قبل النكبة وفي أثنائها، ولا يريد حاضرا أليما يعاصره يوميا ولا تغيير فيه، و إنما يريد مستقبلا جميلا يولد من رحم الألم، يجتمع فيه العاشقان ويعود

[1] حمزة، حسين: محمود درويش،ظلال المعنى و حرير الكلام، موسوعة أبحاث و دراسات في الأدب الفلسطيني الحديث، ص7.
[2] درويش ، محمود: الديوان ، ج1، ص139.
[3] مريم:25

الوليد إلى حضن أمه-الأرض من جديد، و"هناك أولا صورة الأرض. والأرض مأخوذة لديه دائما بوجهيها الاثنين المتكاملين: واهبةَ موتٍ يتمخضُ عن حياة".[1]

ينوب درويش عن السيدة العذراء في قصيدة (وعود من العاصفة) من خلال عملية هز غصن الزمان، ويقوم بتعرية تلك الأغصان الوهمية التي لم تكن يوما سوى السيوف تطعن في مسيرة الشعب:

و ليكن ...

لا بد لي أن أرفض الموت

و أن أحرق دمع الأغنيات الراعفة

و أعرّي شجر الزيتون من كل الغصون الزائفة

فإذا كنت أغني للفرح

خلف أجفان العيون الخائفة

فلأن العاصفة

وعدتني بنبيذ .. و بأنخاب جديدة

و بأقواس قزح[2]

لعقد مقارنة بين كلمة غصن وغصون في كلا القصيدتين، كان لا بد من معرفة الشجرة التي تحوي تلك الغصون، ففي الأولى كان الغصن مجهول الهوية يقف خلفه الغموض التام حول المؤامرة المحاكة ضد الشعب الفلسطيني، وفي الثانية كانت الغصون من أصل شجرة الزيتون التي ترمز للسلام، و رأى الشاعر أن هذه الغصون ما هي إلا أقنعة توهمنا بالسلام، لذلك عمل على تعريتها لكي لا تتكاثر من جديد. فدرويش هنا يعود لاستخدام الأفعال المضارعة الدالة على الغضب (أرفض، أحرق، أعرّي، أغني)، وهذه الأفعال اقترنت بالفعل لا بالقول دلالة على العزيمة والإرادة التي يمتلكها الشاعر. ولعل انتماء درويش إلى الأرض وصلته الوثيقة بها هو أحد أهم أسباب عزيمته و تحديه الذي لا ينتهي، يجيب الشاعر في إحدى المقابلات الصحفية قائلا: "لقد ولدت من أب وأم عربيين على أرض فلسطين. فلماذا أحارب

[1] جهاد، كاظم: عزلة الشاهد، محمود درويش في مجموعاته الشعرية الأولى و قصائده الأخيرة، مجلة الكرمل، دراسات 3، ص88.
[2] درويش ، محمود: الديوان ، ج1، ص189.

هذه المصادفة؟ لماذا أحتج، لماذا أشكو من هذا الإرث؟ لعل في التاريخ من القسوة ما يجعل وارث الأرض وارثا للصليب أيضا. لا أستطيع التدخل في ما لا أستطيع التدخل فيه، وهو المصادفة التاريخية. أما أجمل قصيدة فإن أحدا لم يكتبها بعد، لا من ولد هنا، ولا من ولد هناك. لا من ولد أمس، ولا من ولد الآن، ولا من ولد غدا... إن أجمل قصيدة لن تكتب أبدا... أبدا..."[1].

يجعل درويش من نفسه أحد القادة المأسورين في قصيدة "رد الفعل" و يقول:

وطني! يعلمني حديد سلاسلي

عنف النسور، و رقة المتفائلِ

ما كنت أعرف أن تحت جلودنا

ميلاد عاصفة .. و عرس جداول

سدوا عليّ النور في زنزانة

فتوهّجت في القلب .. شمس مشاعل[2]

وكأنني بالشاعر وقد تصور نفسه بأنه أبو محجن الثقفي "الذي كان ضمن الجيش الذي خرج مع سعد بن أبي وقاص لحرب الأعاجم، فكان سعد يؤتى به شاربا فيتهدده، فيقول أبو محجن: لست تاركها إلا لله عز وجل، أما لقولك فلا. قالوا: فأتى به يوم القادسية وقد شرب الخمر، فأمر به إلى القيد، فلما اشتد القتل في تلك الليلة، طلب أبو محجن من زوج سعد أن تفك قيوده و تعطيه فرس سعد، كي يشارك في المعركة ففعلت، وخاض الحرب ببسالة، ثم عاد إلى حبسه"[3]. فدرويش المتمثل بالنسر الفلسطيني يخاطب وطنه الذي يقطن داخله بكلمات تحمل بصيص الأمل بالرغم من الألم الذي يعانيه "ميلاد، عرس"، وهنا نلحظ الاختيار الدقيق في توظيف درويش لكلماته في القصيدة، فمن منظور اجتماعي، يتم العرس أولاً كحدث احتفالي يشهده الناس ليشهد أهل الحي بعد حين من الزمن ميلاد طفل جديد، و لكن درويش صمم على الميلاد الذي سينفجر حبا من قلوب الثائرين لتتم مراسم العرس فيما بعد. إنها الأرض لا تعطي أفراحها إلا لمن يسطر بشهادة الميلاد دما على ثراها الطاهر.

---

[1] مرشليان، إيفانا: أنا الموقع أدناه محمود درويش، دار الساقي للنشر و التوزيع،1991، ص90.

[2] درويش ، محمود: الديوان ، ج1، ص249.

[3] سلمان، ختام سعيد: أبو محجن الثقفي المتأرجح بين المعصية و الطاعة، مجلة كلية العلوم الإسلامية-جامعة بغداد، ع42، 13 رمضان 1436/ 30 حزيران 2015، ص343.

ولعل درويش يستشرف عودة الفاتحين من جديد على سطوح المنازل ليحققوا وعدا طال انتظاره ويفكوا قيودا صدئت على أجسادنا:

و حفرت بالأسنان رسمك داميا

و كتبت أغنية العذاب الراحل

أغمدت في لحم الظلام هزيمتي

و غرزت في شعر الشموس أناملي

و الفاتحون على سطوح منازلي

لم يفتحوا إلا وعود زلازلي!

لن يبصروا إلا توهج جبهتي

لن يسمعوا إلا صرير سلاسلي

فإذا احترقت على صليب عبادتي

أصبحت قديسا .. بزيّ مقاتلِ[1]

القصيدة السابقة تعرض لنا (سيناريو) خاصاً من وحي الشاعر، حينما عقد مقارنة واضحة بينه وبين الفاتحين باستخدامه للفعل الماضي الخاص به، بينما الفعل المضارع قد خص به الفاتحين الذين سيأتون بعد رحيله بسنوات.

وإذا تأملنا الأفعال الماضية الخاصة بالشاعر المُقيد بسلاسل الاحتلال، ندرك أن الكتابة للسجين لا تتم إلا من خلال الحفر على الجدران، والسيوف التي أغمدت في ظلام الأسر لا بد من غرزها من جديد في انتصار محقق، وأنه لا بد من الاحتراق لرؤية النور الساطع لكي يكون رمزا لغيره. ولا بد من وقوع هذه الحوادث لكي يأتي الفاتحون على إثرها لتطهير الأرض، واستخدام الشاعر لأسلوب النفي المقترن بالأفعال المضارعة يدل على أن تغيير المسار لا يتم إلا من خلال بؤرة مركزية واحدة وهي فلسطين التي ستكون مركز الصراع، وهنا استشراف واضح للمستقبل بحدوث تغيير على الساحة الوطنية لصالح الفلسطينيين. ولعل ما يدعم هذا القول استخدام الشاعر نوعين من التناص في هذا السياق و هما التناص

[1] درويش ، محمود: الديوان ، ج1، ص250.

الأسطوري والتناص الديني، أما الأول فتحدث عن أسطورة ديدالوس[1] وابنه. أما التناص الآخر فهو ديني فرمز الصليب يوحي بقصة السيد المسيح عليه السلام حسب الرواية المسيحية، وتقييده على الصليب ليكون سبيل الخلاص وانتهاء الآلام، وبذلك يكون قدوة لأتباعه. ورمز (الصليب) لا يعني الاستسلام في شعر درويش بقدر ما تحمله الكلمة من معاني التحدي و الثبات، فهو يرفض الألم ونهاية الحكاية المأساوية في قصيدة (كتابة بالفحم المحترق):

و لكنني خارج من مسامير هذا الصليب

لأبحث عن مصدر آخر للبروق

و شكل جديد لوجه الحبيب[2]

يتضح لنا أن المسيح المصلوب هو "الشاعر الذي يعرض نفسه لأنواع التعذيب وصوته صرخة في وجه الظلم ويحمل العذاب من أجل الوطن وشعبه. والمسيح والصلب تعبير عن كل الآلام والمعاناة التي يتحملها الإنسان الفلسطيني في الثورة على الظلم الصهيوني"[3].

يستحضر درويش شخصية سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه في قصيدة (حبيبتي تنهض من نومها) "وهو خال رسول الله (ص) و بطل القادسية، وفاتح المدائن، والعراق والجزيرة، ومُطفئ نار المجوس المعبودة إلى الأبد"[4]، ويتمنى أن تعود الأمة العربية لتضمد جراحها من جديد بزغاريد الانتصار بعد بكاء ليل طويل:

ألا تقفزين من الأبجدية

إلينا، ألا تقفزين؟

فبعد ليالي المطر

---

[1] "وخلاصة الأسطورة أن ديدالوس كان عبقريا فاستدعاه أمير جزيرة كريت ليبني له فيها سجنا غير ذي أبواب، كي لا يستطيع السجين الذي يُزج فيه الخروج منه. ذهب ديدالوس مستصحبا ابنه معه و بنى السجن المطلوب وفق مواصفات الأمير. بعد أن انتهت المهمة غضب الأمير على ديدالوس فزجه و ابنه في السجن الذي بناه، و كان محكما حقا لأن بانيه لا يستطيع الخروج منه. و تفتقت عبقرية ديدالوس عن حل: صنع أجنحة له و لإبنه، و أخذا يتدربان على الطيران. و عندما حلت لحظة الإقلاع أوصى ديدالوس ابنه ألا يقترب من الشمس لئلا يموع شمع جناحيه فيسقط في البحر. و انطلقا من كريت نحو اليونان عبر المتوسط، فأغرت الفتى الشمس فاقترب منها في نشوة خلاصه من سجنه فماع شمعه و خرّ غريقا". عطا، عبد الوهاب: سلالة الطين، المؤسسة العربية للدراسات، 2004، ص548.

[2] درويش ، محمود: الديوان ،ج1، ص280.

[3] ملا إبراهيمي، عزت، و آخرون: الرمز و تطوره الدلالي في الشعر الفلسطيني المقاوم، مجلة القسم العربي-جامعة بنجاب، لاهور-باكستان، ع24، 2017، ص150.

[4] العفاني، السيد بن حسين: أنوار الفجر في فضائل أهل بدر، المجلد الأول، ط1، جدة، 2006، ص515.

ستشرع أمتنا في البكاء

على بطل القادسية! ..[1]

و كأنني أرى الشاعر يتوق بأن يرى الأمة العربية قوية وموحدة وحينها فقط ستخرج من قاع البئر الذي أوقعت نفسها فيه. إلى أن يقول:

أصيح:

أعيدوا لنا بيتها

أعيدوا لنا صمتها

أعيدوا لنا موتها ..[2]

فهو يريدها بيتا واحدا لا حدود بين غرفه المتجاورة، ويريدها خريطة صماء بلا أسماء مصطنعة أي كما كانت سابقا، ويريد لها الموت الحقيقي الذي يرفع كلمتها إلى أعلى لا الموت الرخيص الذي تكون فيه هي الضحية دائما. لذلك شكلت أشعار درويش الوطنية أحد أهم عوامل الانتماء للوطن العربي، فقد امتاز بالانفعالات الصادقة تجاه أمته وشعبه، وذلك ساعد على جعل القضية الفلسطينية قضية العرب الأولى في العصر الحديث[3]. فشاعرنا يتبنى فكرة الوطن الواحد الذي لا حدود بين دوله في قصيدته (سرحان يشرب القهوة في الكافتيريا):

و يسكت سرحان[4]. يشرب قهوته و يضيع. ويرسم

خارطة لا حدود لها. ويقيس الحقول بأغلاله

-هل قتلت؟

وسرحان لا يتكلم. يرسم صورة قاتله من جديد،

---

[1] درويش ، محمود: الديوان ، ج1، ص332.

[2] المصدر السابق، ج1، ص332.

[3] ينظر:الضمور، عماد عبد الوهاب: فلسطين في شعر محمود درويش، جريدة الدستور الأردنية، الخميس 6 نيسان/ أبريل 2017.

[4] الشاب الفلسطيني الأصل الذي اغتال روبرت كنيدي عام 1968، و كان كنيدي أقوى مرشحي الرئاسة الأمريكية و أكثر المرشحين تحمسا وتأييدا لإسرائيل. ينظر ar.m.wikipedia.org

يمزقها، ثم يقتلها حين تأخذ شكلا أخيرا ..[1]

فالخارطة التي لا حدود لها هي حلم سرحان وحلم كل فلسطيني حر، فدرويش يعرف "أن أمته التي كانت قوية قد انهارت، وأصبحت جمادا، خرابا، دخانا، وساحات حرب وموت وأسى. ويعرف أشياء أفظع وأوجع لكنه، وهنا صحوة الأمل التي لا تفارق درويش عادة، الأمل بالمستقبل والإيمان بالتاريخ لاستعادة هويته، مهما قست الظروف ومهما طال الألم. وفي معظم قصائد درويش تتكرر صورة اليقظة أو الصحوة والانتقال من الواقع المرير إلى المستقبل/الحلم، إيمانا منه بدور النضال وبدور الإنسان في تحقيق الحلم وإحقاق الحق وإسقاط الظلم البشري"[2]. لذلك يؤكد في قصيدة (ولنا بلاد) على تمسكه بحلمه وأرضه وحبه لها بالرغم من الألم المحيط به:

و لنا بلاد لا حدود لها، كفكرتنا عن

المجهول، ضيّقة و واسعة. بلاد ...

حين نمشي في خريطتها تضيق بنا،

و تأخذنا إلى نفق رمادي، فنصرخ

في متاهتها:و ما زلنا نحبك. حبنا

مـــرض وراثـــــي[3]

في قصيدة (النزول من الكرمل) ينتظر درويش بلهفة ويتفاءل باستمرار بعودة السيد المسيح عليه السلام إلى الأرض ثانية ليعم السلام من جديد:

أيها الكرمل، الآن تأتي إليك العصافير من ورق

كنتَ لا فرق بين الحصى والعصافير

و الآن بَعْثُ المسيح يؤجَّل ثانية[4]

---

[1] درويش ، محمود: الديوان ، ج2، ص110.
[2] الزعبي، أحمد: فضاءات قصيدة "سرحان يشرب القهوة في الكافتيريا"، جريدة الخليج، 2 كانون الثاني/يناير 2010.
[3] المصدر السابق ، ج 4،ص45.
[4] المصدر السابق ،ج2، ص120.

وكأن مجيء المسيح عليه السلام مرة أخرى سيحدث تغييرا فاعلا على الساحة الفلسطينية والدولية، إذ "إن المسيح عليه السلام من أبرز الرموز التي كان لها رواج واسع في الشعر الفلسطيني المعاصر. فهو شخصية إيجابية ذات المواقف النبيلة التي أوردها الشعراء في دواوينهم، فهم يستخدمونه تارة رمزا للاستقامة لما تحمله من الإيذاء والاضطهاد في حياته وتارة رمزا للوطن والبقاء"[1]، وظهور المسيح من جديد هو أمر في غاية الأهمية ولن يتحقق إلا في نهاية الزمان، وحين يصل التاريخ نهايته ويبلغ الفساد ذروته.[2]

يتعمد درويش أحيانا التلميح للعدو بأحداث من التاريخ مضت واحتمالية عودتها من جديد، ويعلن بلهجة التحدي المليئة بحب الحياة في قصيدة (على هذه الأرض):

على هذه الأرض ما يستحق الحياة: تردد إبريل، رائحة الخبز في الفجر، تعويذة امرأة للرجال، كتابات أسخيليوس، أول الحب، عشب على حجر، أمهات يقفن على خيط ناي، وخوف الغزاة من الذكريات.[3]

وبما أن الغزاة يخافون من الذكريات، فاحتمالية عودتها واردة، والذكريات التي قصدها درويش هي اللحظات التي لم تشهد للأمة العربية ذلا وانكسارا، و لعله خص من هذه الذكريات الانتصارات التي حققها المسلمون على اليهود على مر التاريخ. ينتقي درويش الكلمات ذات الدلالة التفاؤلية التي ترتكز على الألم والتي بينتها من خلال الجدول الآتي:

الكلمة	دلالتها التفاؤلية
أبريل	هو شهر نيسان و بداية فصل الربيع، يرمز للأمل والتطلع للغد المشرق/كلمة (تردد) توحي إلى احتمالين اثنين هما الخفوت و السطوع وما دمنا نعيش الحالة الأولى فنحن في انتظار الثانية.
الفجر	يرمز للنصر والظفر بالأعداء بعد ظلام ليل طويل و عذابات متكررة.
رائحة الخبز	الانجذاب واليقين بحتمية النصر والتغيير و نيل المنى، فلا يمكننا أن نشم رائحة الخبز وتذوقه إلا

[1] ملا إبراهيمي، عزت، و آخرون: الرمز و تطوره الدلالي في الشعر الفلسطيني المقاوم، مجلة القسم العربي-جامعة بنجاب، لاهور-باكستان، ع24، 2017، ص148.
[2] ينظر: الشامي، رشاد: تفكيك الصهيونية في الأدب الإسرائيلي، ط1،الدار الثقافية للنشر، القاهرة، 2003، ص53.
[3] درويش ، محمود: الديوان ، ج3، ص111.

	بوجود نار حامية ألا وهي التضحية.
التعويذة	قوة جذب لحب الأرض و ضرورة الانتماء لها، و خص فيها الرجال لأنها تحتاجهم كركيزة أساسية من أجل فك الشيفرة السرية من خلال النصر و تحقيق التحرير.
كتابات أسخيليوس[1]	التأثير في الجمهور ونبذ الألم والتطلع نحو مستقبل واعد، لأن كتابات أسخيليوس تحمل طابع المأساة و كأني بدرويش يريد للمشاعر النبيلة المليئة بالأمل أن تتولد من خلال الألم و حس المسؤولية.
أول الحب	التطلع نحو مستقبلٍ واعد يحمل بين طياته الأحلام والوعود للشعب الفلسطيني.
الذكريات	عودة الماضي بصورة مستقبلية حتمية لتحقيق النصر، و كأنها عنصر أساسي من عناصر قوة العرب لهز عرش الأعداء.
العشب	الأمل النابض من رحم المأساة ومن صلابة الصخر القاسي.
الأمهات	الحنين والعودة إلى الأصل، فحضن الأم لا يعوض وكذلك الأرض أمنا الكبرى، لذلك كان لا بد من الوقوف على الأشواك لنرتقي إلى أعلى.

تأتي هذه الكلمات لتضعنا في روضة من الجنة المفقودة المفعمة بحب الحياة، إذ إن الفلسطيني ليس "مهنة أو شعاراً، إنه، في المقام الأول، كائن بشري يحب الحياة وينخطف بزهرة اللوز، ويشعر بالقشعريرة من مطر الخريف الأول، ويمارس الحب تلبية لشهوة الجسد الطبيعية، لا لنداء آخر ... وينجب الأطفال للحفاظ عل الاسم والنوع لمواصلة الحياة لا لطلب الموت، إلا إذا أصبح الموت فيما بعد

[1] روائي مسرحي تراجيدي يوناني، انصرف إلى كتابة المسرحيات، و كلها ذات مضمون درامي و مأساوي، كتب حوالي 70 عملاً مسرحياً. ينظر: ar.m.wikipedia.org

أفضل من الحياةّ! وهذا يعني أن الاحتلال الطويل لم ينجح في محو طبيعتنا الإنسانية، ولم يفلح في إخضاع لغتنا وعواطفنا إلى ما يريد لها من الجفاف أمام الحاجز"[1].

لذلك كان لقراءة التاريخ و استعادة الذكريات الإيجابية العالقة في ثناياه أثر واضح من آثار الأمل الذي سنتبع خطواته للوصول إلى الهدف المنشود، فاللحظات التاريخية والذكريات و حب الأرض شكلت هرماً ثلاثياً لصياغة أحد المسوغات التفاؤلية التي ستصنع فارقا على الساحة في إعادة الرؤية الاستشرافية من جديد.

[1] يعقوب، أوس داوود: محمود درويش، مختارات شعرية ونثرية، دار المنهل للنشر، 2011، ص27.

ثانياً: حركات التحرر

حينما نتحدث عن التحرر فلا بد من كلمة مضادة كانت قبلا تتسم بالظلم والعنصرية واضطهاد البلاد من قبل الاستعمار، فقد خاضت شعوب العالم الثالث معاركها ضد الاستعمار بعد الحرب العالمية الثانية، مما أدى إلى بروز حركات التحرر على الساحة لنيل الاستقلال والحرية. فعلى الساحة العربية، برزت حركات التحرر في فلسطين بعد حدوث بركان النكبة الذي نهب الشجر و الحجر واستنكر لصاحب الحق الشرعي في أرضه وطرده خارج البلاد قسرا، فنتيجة لذلك كان لا بد من تشكيل حركات تحرر وطنية عدة مع اختلاف الفترات المتفاوتة فيما بينها من حيث الظهور.

ترعرع محمود درويش في ظل عائلة مسلمة في قريته البروة التي دُمرت عام 1948م وغادرها أهلها إلى أماكن مختلفة، فكان من نصيب محمود درويش أن يتذوق مرارة البعد عن حبيبته الأرض في لبنان، حيث أصبح فيها لاجئا ولكن إصراره على العودة جعل منه الفارس الذي يتوق أن يشهد أرض المعركة، فكانت العودة وبداية المرحلة الجديدة مع حركات سياسية عدة:

1- الحزب الشيوعي الإسرائيلي:

بما أن درويش كان يعيش في الداخل الفلسطيني، وجد الفرصة الملائمة لانضمامه للحزب الشيوعي الإسرائيلي "فبعد إنهائه تعليمه الثانوي في مدرسة بني الثانوية في كفر ياسيف انتسب إلى الحزب الشيوعي الإسرائيلي وعمل في صحافة الحزب مثل الاتحاد و الجديد التي أصبح فيما بعد مشرفا على تحريرها، كما اشترك في تحرير جريدة الفجر التي كان يصدرها حزب مبام"[1].

تعرض محمود درويش في ظل الحزب الشيوعي للاعتقال بسبب قصائده السياسية الداعمة للقضية الفلسطينية، ومن هذه القصائد التي سطرت معاني الانتماء (بطاقة هوية):

سجل!

أنا عربي

أنا اسم بلا لقب

[1] عبود، شوقي: معجم أدباء العالم، ط1، دار المؤلف للنشر و التوزيع، وهران، 2016، ص18.

صبور في بلاد كل ما فيها

يعيش بفورة الغضب

جذوري ..

قبل ميلاد الزمان رست

و قبل تفتح الحقبِ[1]

يفحم درويش أعداءه بحكمة الرد ويعلن انتماءه للعروبة ولفلسطين العربية التي حبا فيها طفلا وتصبب عرق أبيه على ثراها لتزهر فيما بعد حباً قلبياً لا يزول بالرغم من البعد، إلى أن يقول:

أنا من قرية عزلاء ... منسية

شوارعها بلا أسماء

وكل رجالها ... في الحقل و المحجر

فهل تغضب؟[2]

ينتقل بنا درويش من الانتماء العام الذي خص به البلاد في المقطع السابق، إلى الانتماء الخاص لقريته المنسية التي أبيدت ملامحها عن وجه الحقيقة، تلك البروة الدرويشية التي لا فرق بين صغيرها وكبيرها، وبروز هذه القصيدة على الساحة صاحبه تأسيس منظمة التحرير الفلسطينية "لتتحول القصيدة إلى ما يشبه بيانا سياسيا بصيغة شعرية للمنظمة وهوية لفلسطين"[3]. ولعل الانتماء الأبرز لدى درويش كان للشيوعية فالقارئ لقصيدة درويش يلاحظ حضور عبارة (يحبون الشيوعية) حين يقول:

و كل رجالها ... في الحقل و المحجر

يحبون الشيوعية

فهل تغضب؟

---

[1] درويش ، محمود: الديوان ، ج1، ص81.

[2] المصدر السابق، ج1، ص83.

[3] المديني، أحمد: من احتلال الأرض إلى تحولات النص، مجلة الفيصل، العددان 497، 498، جمادى الآخرة-رجب 1439/مارس –إبريل 2018، ص35، 36.

فدرويش لا يكتفي بانتماء واحد يتعلق بالجذور والمكان فقط، بل صرح بالانتماء الفكري والحزبي "وهنا يمكن أن نقول إن درويش جماليا لم يرد لنصه الشعري أن يكون أسيرا لفترة زمانية محصورة بانتمائه الحزبي، و إنما أراد بعد خروجه من البلاد 1970م أن يتجاوز نصه هذه الآنية وخصوصا أنه انتقل في المرحلة الثانية إلى الانتماء القومي بعد تواصله المباشر مع العالم العربي وخصوصا مصر. وقد يكون لتغيير موقفه الأيديولوجي قسط في هذا التغيير"[1].

يبرز موتيف الغضب في القصيدة بصورة واضحة من خلال تكرار كلمات دالة على ذلك (فهل تغضب؟، فورة الغضب، من جوعي ومن غضبي) و كأن الغضب سمة أساسية يجب أن يتحلى بها صاحب الحق السليب الذي ينتمي للشيوعية. ويتكرر الضمير (أنا) في القصيدة حاملا دلالة الانتماء في طياته على النحو الآتي:

العبارة	الدلالة
أنا عربي	**تكررت خمس مرات/ دلالة على الانتماء القومي.**
أنا اسم بلا لقب	**تكررت مرتين/ دلالة على الانتماء الإنساني والشيوعي.**
أنا من قرية عزلاء منسية	**مرة واحدة/ دلالة على الانتماء المكاني الجذوري.**
و أرض كنت أفلحها أنا و جميع أولادي	**مرة واحدة/ الانتماء الجماعي غير المقترن بالزمان والمكان لأنه لو اقترن بزمان ومكان محددين لنفى أحقية الفلسطيني بهذه الأرض وكأنه ضيف عليها فهي للفلسطيني منذ الأزل وستبقى.**
أنا لا أكره الناس	**مرة واحدة/ انتماء إنساني، لا وجود للعدائية مع اليهود على الصعيد العام وإنما مقته للاحتلال الغاشم.**

و يمكن توضيح العلاقة بين درويش و رابط الانتماء من خلال هذا المخطط البياني:

[1] حمزة، حسين: الصياغات النهائية وتحول المعنى، محمود درويش نموذجا، مجلة مجمع اللغة العربية-حيفا، عدد3، 2012، ص17.

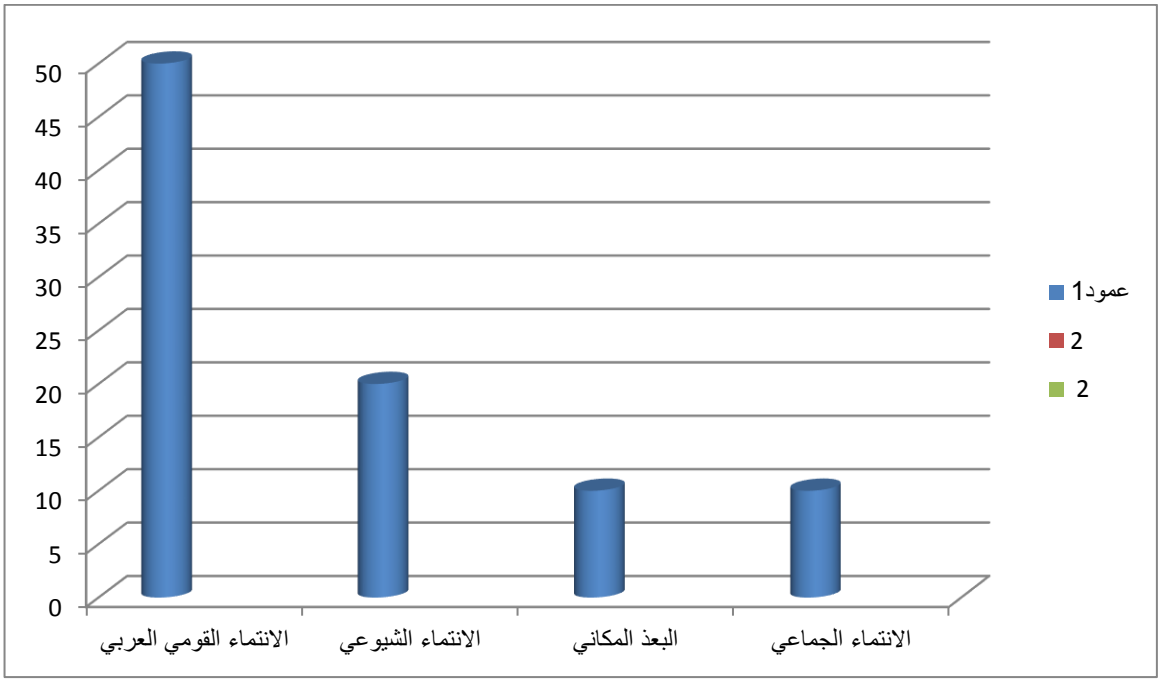

من خلال الرسم البياني السابق يتضح أن النصيب الأكبر من الانتماء كان للقومية العربية (50%)، فالشاعر من جذور عربية جعلته كشجرة زيتون لا تخرج إلا زيتا عربيا مباركا، فالقومية العربية جعلته يتحصن بأكثر من سلاح: كالأصل العربي واللغة العربية والصفات المكتسبة سواء كانت جسدية، فكرية والعادات التقاليد والتأثر بالقيادات العربية. أما الجانب الآخر من الانتماء فكان من نصيب التيار الشيوعي (20%)، حيث احتضن درويش أكثر من الجماعة والمكان لأن كلاً من الجماعة والمكان غير مستقر أما الشيوعية فاستقرت في أكثر من بلد، وكأن درويش قد وجد له حاضنة داخلية وخارجية، ومع أنها كانت لفترة مؤقتة في حياته فإنها تركت تأثيرا كبيرا. في المستوى الثالث جاء الانتماء نوعا ما ضعيفا فيما يتعلق بالانتماء المكاني والجماعي، فحصدت كل منهما بما لا يتجاوز (10%) من الانتماء، فالانتماء المكاني تمثل في عدم الاستقرار في حياة درويش وظهر ذلك من خلال اتجاهين:

أولا: الداخلي، عدم عودته للبروة، تلك القرية المنسية، وخروجه من أراضي 1948م فيما بعد.

ثانيا: الخارجي، عدم استقرار الشاعر في مكان محدد سواء كان ذلك في بلد عربي كتونس ولبنان أم بلد غربي كفرنسا.

أما فيما يخص الانتماء الجماعي، فعانى درويش من تفكك الجماعة على الصعيدين:

أولا: الشخصي، ابتعد شاعرنا عن أهله الذين يقطنون في الجديدة متنقلا بين مدن و دول العالم وآخرها مدينة رام الله.

ثانيا: السياسي، افترق درويش عن قيادات سياسية و أصدقاء خطفهم الموت نتيجة العمل السياسي أو الغربة السياسية.

2- منظمة التحرير الفلسطينية

كان لانضمام درويش لمنظمة التحرير الفلسطينية عام 1972م تأثير خاص على حياته، فقد "كان محمود درويش في شبابه شيوعياً، عندما كانت تلك الفكرة هي السلاح الأوحد الأقوى في مواجهة موجة استعمارية عاتية. لكنه لم يبق كذلك عندما غادر الأرض المحتلة في مطلع السبعينيات إلى المنافي. بل اكتسبت شخصيته الشعرية والوطنية المزيد من الغنى والتنوع والتعدد، الذي تتسم به هوية فلسطينية لم تكن يوما حكرا على أحد، أو اختصارا لحزب أو حتى لتيار"[1].

في عام 1972م، أصدر درويش ديوانه (أحبك أو لا أحبك) و في قصيدة (تقاسيم على الماء)، يتفاءل درويش بالرغم من الصعوبات التي تواجه الشعب الفلسطيني، فقد أصبح شاعرنا في ذلك العام في الثلاثينات من العمر، وكأن لكل مرحلة عمرية أو عقد من الزمان ارتباط بظروف و شروط خاصة لا تنازل عنها، وعلى رأسها سمة التفاؤل و نبذ اليأس:

وراء الخريف البعيد

ثلاثون عاما

و صورة ريتا

و سنبلة أكملت عمرها

في البريد.

وراء الخريف البعيد[2]

يأخذنا درويش إلى ما قبل خريف النكبة ليذكرنا بولادته منذ ثلاثين عاما، ويذكرنا بصورة ريتا_الأرض التي لا تغيب عن الذاكرة، فبالرغم من حوادث النكبة القاسية التي ألمت بالشعب الفلسطيني، ما زال شاعرنا يتذكر وجه المحبوبة الأولى التي سكنت روحه والتي تعثر بثراها الذهبي لأول سبع سنوات من عمره، ليبدأ بعدها مشوار المعاناة الطويل، ففي هذه القصيدة جاء اسم (ريتا) لا يدلل على

[1] نور الدين، ساطع: محطة أخيرة .. خارج السياق، ط1، دار الفارابي للنشر و التوزيع، بيروت، 2009، ص253.
[2] درويش ، محمود: الديوان ، ج2، ص56.

المرأة، ففي كثيرمن قصائده "لا يتمكن القارئ أن يفرق بين الأنثى و الوطن، والحديث الظاهري يدلل على المرأة، لكن الصياغة العميقة ترسو على قاعدة صلبة هي حب فلسطين. وتغدو المحبوبة في أغلب القصائد هي فلسطين، ورسم محمود درويش ملامح المرأة والوطن بطرق مختلفة بين قصيدة وأخرى"[1].

و تمنعني من محاذاة هذا المساء

نوافذ أهلي.

متى يذبل الورد في الذاكرة؟

متى يفرح الغرباء؟

لكي أصف اللحظة العائمة

على الماء

أسطورة أو سماء ..[2]

يستخدم الشاعر أسلوب الاستفهام للسؤال عن زمن مستقبلي لم يأتِ، فذكريات القرية الجميلة ما تزال عالقة في ذاكرة اللاجئين الذين لم يفرحوا بالعودة بعد، فبالرغم من الأسى الذي يعانيه الشاعر ويمنعه من العودة إلى وطنه وعدم استقراره في مكان ثابت، فإنه يضفي على شعره دلالات تبث الأمل بصورة غير واضحة:

الكلمة	دلالتها
الخريف	دلالة تشاؤمية و لكنها في قاموس محمود درويش تحمل طابعا تفاؤليا "فهو يحب الخريف على رغم أنه ولد في الربيع، و قال إن الاخضرار الرمادي في عينيه فيه الكثير من تلاوين الخريف، حيث يختلط الأخضر باحتمالاته"[3].
عاماً	لفظ يحمل معنى تفاؤليا فيه بعض الخير ربما نتيجة

[1] إبراهيم، هيام: المرأة في شعر نزار قباني ومحمود درويش، جامعة القادسية، ص16.
[2] درويش ، محمود: الديوان ، ج2، ص57.
[3] خوري، إلياس: سنكون يوما ما نريد، وزارة الثقافة، ديسمبر/كانون الأول 2008، ص161.

	تغيير المسار الحزبي لدرويش و انضمامه لمنظمة التحرير، بينما لو استخدم كلمة (سنة) لكان المعنى تشاؤميا.
صورة ريتا	الذكريات الجميلة في القرية، فهذه الصورة رسخت في الذاكرة لمدة سبع سنوات إبان حدوث النكبة، يقول درويش معبرا عن ذلك "لا أثر (للبروة) على يمين الشارع القادم من الناصرة، غير صورتها في خيالك المطعون بقرون الثيران التي تمضغ و تجتز علف ذكرياتك. قلتَ: أمرُّ بها عند الغروب لأدّخر لخيالي غموضا يعين الغريب فيك على ابتكار الصور من ثنايا الحجر"[1].
سنبلة	فيض من الخير والعطاء، فدرويش يستخدم هذه المفردة (سنبلة، سنابل) ليبث الأمل في نفوس قرائه.
نوافذ	سهولة الوصول و العودة إلى الوطن تحت الوصاية العربية، على عكس ما دلت عليه مفردة الشباك التي استخدمها في (شتاء ريتا) مقترنة بالعدو الإسرائيلي حين قال: **فافتح لها الشباك كي يتعطر الليل الجميل**، فمن حيث اللغة "يسمون النافذة الكبيرة في حائط البيت شباكا و إن كان غير مشبك بشيء من الحديد أو الخشب، و هو صفة غالبة مبنية على التوسع في الاستعمال. أما الشباك ما صنع من قضيب ونحوه"[2].
الورد	الذكريات الجميلة التي لا تذبل، فهي مصدر للتفاؤل و العودة المحققة.

[1] درويش ، محمود: الديوان ، ج5، ص504.
[2] النحاس، هشام: معجم فصاح العامية، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، 1997، ص355.

يفرح	الفرح الدائم لا المؤقت، فاللاجئون لا يريدون العودة فقط، بل يريدون الفرحة المكللة بالانتصار، فالطموح إلى انتصار ثم عودة إلى ديارهم التي هجروا منها وليس إلى جزء معين من فلسطين.
اللحظة العائمة	اللحظة الأسطورية المنتظرة التي سيحقق فيها النصر لصالح الفلسطينيين.

يتضح من القصيدة السابقة، وبخاصة المقطع الأول منها استهلالها بعبارة (وراء الخريف البعيد) وانتهى المقطع الأخير منها بالعبارة نفسها، ولاحظت أن هذه العبارة عبرت عن مرحلتين منفصلتين، فدرويش أتحفنا بهذه القصيدة وهو في الثلاثينيات من عمره، فهل كان يدرك أن عام 1972م سيكون حدا فاصلا بين ثلاثين عاماً ماضية وثلاثين عاماً قادمة؟ و لكي تتضح هذه الصورة أرفقت الجدول الآتي:

الزمن الحالي (1972)	
وراء الخريف البعيد (في بداية المقطع) قبل ثلاثين عاما	**وراء الخريف البعيد (في نهاية المقطع) بعد ثلاثين عاما**
في عام (1941)م ولد درويش و بعدها بسبع سنوات حدثت النكبة	**في عام (2001)م حدثت الانتفاضة الثانية و توفي درويش بعدها بسبع سنوات**

في الخريف الأول كان الشاعر ينعم بالحياة على أرضه حتى جاءت العاصفة التي قلعته منها، أما الخريف الثاني فلم يأتِ بعد، ولأن من عادة الأشياء التضاد أو المعاكسة، فالخريف الأول كان تشاؤميا، أما الخريف الآخر فهو عكس ذلك تماما، فلا بد من وجود المنتصر و المهزوم في ساحة المعركة، و بما أننا انتكسنا بخريفنا الأول، فسننتصر في الآخر لتكون الهزيمة من نصيب الآخرين. ويؤكد درويش ذلك في قصيدة (زيتونتان):

تتشعب الذكرى و تلعب. ها هنا

زيتونتان عتيقتان على شمال الشرق

في الأولى وجدت بذور أغنيتي

و في الأخرى وجدت رسالة

من قائد الرومان:

يا إخوة الزيتون

أطلب منكم الغفران،

أطلب منكم الغفران ...[1]

ربطت درويش علاقة متينة بالرئيس الراحل ياسر عرفات نتيجة انضمامه للمنظمة، "فقد اختاره الرئيس ياسر عرفات ليكون مستشاره، و انتخب عضوا في اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير عام 1988، ثم استقال منها رفضا لاتفاقية (أوسلو) عام 1993. كما اختير رئيسا لاتحاد الكتاب و الصحفيين الفلسطينيين حتى عام 1987"[2]. ويصف محمود درويش الرئيس ياسرعرفات بأنه "لم ينتصر في المعارك العسكرية، لا في الوطن ولا في الشتات. لكنه انتصر في معركة الدفاع عن الوجود الوطني، ووضع المسألة الفلسطينية على الخارطة السياسية، الإقليمية والدولية، وفي بلورة الهوية الوطنية للفلسطيني اللاجئ المنسي عند أطراف الغياب، وفي تثبيت الحقيقة الفلسطينية في الوعي الإنساني، ونجح في إقناع العالم بأن الحرب تبدأ من فلسطين، وبأن السلم يبدأ من فلسطين"[3].

يكمل درويش مسيرته مع منظمة التحرير ليحث شعبه على المقاومة في قصيدة (تل الزعتر):

يا أيها الولد المكرّس للندى

قاوم!

يا أيها البلد _المسدس في دمي

قاوم!

الآن أكمل فيك أغنيتي

و أذهب في حصارك

---

[1] درويش ، محمود: الديوان ، ج4، ص58.
[2] عصمت، رياض: حداثة و أصالة، دار الفكر، دمشق، 2013، ص19.
[3] المصدر السابق، ج6، ص281.

و الآن أكمل فيك أسئلتي

و أولد من غبارك

فاذهب إلى قلبي تجد شعبي

شعوبا في انفجارك[1]

كتب درويش قصيدته إثر مذبحة تل الزعتر عام 1976م وكعادته دوما، فقد حَرَصَ على غمس قلوب أبناء شعبه بالأمل و الولادة من رحم الموت، مؤمناً أن الشعب الفلسطيني سيظل صامدا في وجه العواصف المتقلبة في شتى الأماكن و الأزمان حتى يعود إلى أرضه و لو بعد حين، لذلك نجده يحث على المقاومة باستخدام أسلوب الأمر (قاوم) وتكررت مرتين للتأكيد على خيار المقاومة كحل أمثل لصمود الشعب، فالشعوب التي تنظر إلى غدها المشرق يجب أن تقاوم، و كذلك وظف درويش أسلوب النداء مرتين (يا أيها الولد)، (يا أيها البلد) للدلالة على القرب، فالولد هو ابن الشعب الفلسطيني الذي سيولد ثانية، ويتدفق دمه في عروق الشاعر، و البلد هو لبنان الذي سطرت على أرضه أبشع المجازر بحق الشعب الفلسطيني، فكان كالمسدس المصوب فقط على الشعب المنكوب. فشعراء النضال والمقاومة والشهداء جعلوا من الخراب والحروب قصائد حب ملحمية، فقد كان مخيم تل الزعتر الفلسطيني مخيماً حاضناً للبؤس والشقاء، ومع هذا كله ظلّ ينجب زعتراً ومقاتلين[2].

انطلاقا من هاجس العودة الذي صاحب درويش في حياته، يتساءل في قصيدة (عزف منفرد) إذا كان سيعود إلى ما وراء حدود أراضي 1948م أو إلى أي بقعة من أرض فلسطين خارج هذه الحدود:

لو عدت يوما إلى ما كان، هل أجد

الشيء الذي كان و الشيء الذي سيكون؟

العزف منفردُ

والعزف منفردُ[3]

[1] درويش ، محمود: الديوان ، ج2، ص263.
[2] ينظر:أبو سمرا، محمد: طرابلس، ساحة الله و ميناء الحداثة، دار الساقي، بيروت، 2011، ص68.
[3] درويش ، محمود: الديوان ، ج3، ص30.

فالعزف على إيقاع العودة عام 1986م كان منفردا من جهة منظمة التحرير الوطنية الفلسطينية، "ففي نيسان/أبريل 1986م، شهدت حركة التحرير الوطني الفلسطيني (فتح) كبرى فصائل منظمة التحرير الفلسطينية بزعامة عرفات محاولة انشقاق"[1] حيث شهدت هذه السنة أيضا إعلان "الملك حسين في خطاب مطول القطيعة مع منظمة التحرير الفلسطينية عبر وقف التنسيق وإلغاء الاتفاقات المبرمة معها"[2].

بالعودة إلى قول درويش **(الشيء الذي كان والشيء الذي سيكون؟)** يتضح لنا وجهة نظر فلسفية حول فكرتين متناقضتين بين أفلاطون وأرسطو، فأفلاطون يرى أن الكمال موجود فقط في عالم المثل ولا كمال على أرض الواقع أي كما كان، بينما نرى أرسطو يريد تصوير الواقع كما يجب أن يكون، "ففلسفة أفلاطون تقوم على التصورات المستندة إلى الأفكار والتأملات، على التفكير العقلي والمنطق، وفلسفة أرسطو يبدو أنها تقوم على المشاهدات والمحسوسات التي قوامها التجارب والمقارنات"[3].

أفلاطون (قبل نكبة 1948)	أرسطو (في المستقبل القريب)
كانت فلسطين عربية الملامح على الرغم من الاحتلال الانجليزي وقبل قيام إسرائيل عام 1948م، حيث طُرد الفلسطينيون من أرضهم ونغصوا عليهم حياتهم، فالعالم الكامل في المثال و يجب أن يقترب من المثال، فنظرية أفلاطون تحمل طابعا استسلاميا على الصعيد السياسي لأنها غير قائمة على رد الفعل لتحقيق النتائج لصالح العالم القريب من المثال.	**فلسطين ستعود كما كانت عربية السيادة في السنوات القليلة القادمة، فدور أرسطو اقتصر على تصوير الشاعر للأمور كما يجب أن تكون، ورسم صورة ثانية بأن فلسطين قد تحررت. فدور الشاعر عنده يقتصر على تصوير الواقع كما يجب أن يكون وليس كما هو كائن.**

يتبنى درويش فكرة أرسطو في رؤية الشيء كما يجب أن يكون في قصيدته (وأنا، و إن كنت الأخير):

و أنا، و إن كنت الأخير،

[1] حبيب، رندا: الحسين أبا و ابنا، الأردن في ثلاثين عاما، دار الساقي، بيروت، 2011، ص32.
[2] المرجع السابق.
[3] حسين، عبد الله: تاريخ ما قبل التاريخ، كتاب نت، 1969، ص55.

وجدت ما يكفي من الكلمات ...

كل قصيدة رسمٌ

سأرسم للسنونو الآن خارطة الربيع

و للمُشاة على الرصيف الزيزفون

وللنساء اللازورد ...

وأنا، سيحملني الطريق

وسوف أحمله على كتفي

إلى أن يستعيد الشيء صورته

كما هي،

و اسمه الأصلي في ما بعد/[1]

3- حركات المقاومة الوطنية والإسلامية

فيما يخص الحركات الوطنية والإسلامية على الساحة، فقد شهدت العديد من البلدان صراعات أدت إلى إحداث حالة من النزاع بين القوى الوطنية والإسلامية، فمن الطبيعي أن لا يكون هناك تناقضٌ بين الانتماء الوطني والقومي والإسلامي، وإنّما المشكلة في الأحزاب التي تُقيّد حرية الفكرة والانتماء، وهذا الصراع بدوره لا يمتد إلى فلسطين لأنها واقعة تحت الاحتلال [2].

لم تكن العلاقة بين درويش وحركات التحرر الإسلامية قوية، ولكن بعض الحركات الإسلامية كحماس مثلا كانت تنظر لبعض أشعار الشاعر بإعجاب انطلاقا من كونه شاعر مقاومة، "ففي بداية تسعينيات القرن العشرين قدم الشاعر استقالته من عضوية اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية، لأنه رأى أنه لا يمتلك من الرؤية ما تمتلكه القيادة الفلسطينية في حينه، وبطريقة غير مباشرة عبر عن رفضه لما توصل إليه في (أوسلو)، ولما كانت حركة (حماس) رفضت (أوسلو)، فقد أخذت تثمن مواقف

[1] درويش ، محمود: الديوان ، ج4، ص25.

[2] ينظر:سلامة، عبد الغني: بورتريه لحماس من الميثاق إلى الوثيقة، مركز الأبحاث-منظمة التحرير الفلسطينية، حزيران 2017، رام الله، ص23.

الشاعر "[1].ولكن مؤخراً قامت حركة حماس بمنع تدريس أشعار محمود درويش في غزة. ولأن حركات التحرر الوطنية هدفها واحد هو تحرير فلسطين وعودة أهلها إليها كان لا بد من أن يصدح شاعرنا في قصيدة (الكمنجات) ليذكرنا بتاريخ الهزيمة الذي سيتوّج فجره بالانتصار يوما ما:

الكمنجات تبكي مع الغجر الذاهبين إلى الأندلس

الكمنجات تبكي على العرب الخارجين من الأندلس

الكمنجات تبكي على زمن ضائع لا يعود

الكمنجات تبكي على وطن ضائع قد يعود

الكمنجات تُحرق غابات ذاك الظلام البعيد البعيد

الكمنجات تُدمي المُدى، و تشم دمي في الوريد

الكمنجات تبكي مع الغجر الذاهبين إلى الأندلس

الكمنجات تبكي على العرب الخارجين من الأندلس[2]

لعل محمود درويش أراد بالكمنجات اللحن الحزين الخارج من صدور من عاش على أرض الأندلس، ولم يستقر كل من الغجر والعرب على أرضها، فالغجر بالنسبة للأندلس هي أرض الميعاد والمفتاح لهذا هو التعايش والتفاهم المتبادل بين الناس، وبفضل هذا التفاعل نجحوا في القضاء على الحواجز، فهم يعيشون جنبا إلى جنب فالغجر أصبحوا أندلسيين و الأندلسيون أصبحوا غجراً[3]، وصفهم درويش في المقطع السابق بأنهم ذاهبون انطلاقا من عدم استقرارهم في مكان معين، فالغجر معتادون على الترحال فهذا نمط حياتهم، لكن أحيانا يكونون مضطرين للرحيل بسبب ظروف قاسية، ففي أوروبا يتعرضون للاضطهاد و العنصرية و يدفعون ثمن أخطاء لم يرتكبوها[4].

على الرغم من عدم استقرار الغجر في أي مكان، فقد كانت تراودهم دائماً فكرة الذهاب إلى الأندلس، كوطن يستحقون العيش فيه. أما فيما يتعلق بالعرب فحكايتهم تختلف نوعا ما، فبعد مضي ثمانية قرون في الأندلس، خرجوا منها و لم يعودوا إلى الآن، فقد "سلم أبو عبد الله الصغير غرناطة بعد صلح

[1] الأسطة، عادل: حماس و محمود درويش، جريدة الأيام، 2013/9/1.
[2] درويش ، محمود: الديوان ،ج3، ص291.
[3] ينظر، الأندلس أرض الميعاد للغجر، https://www.youtube.com/watch?v=gMn8D2eXP4c
[4] ينظر، الغجر في إسبانيا.. عندما تندمج الموسيقى مع الجغرافيا https://www.youtube.com/watch?v=Cmrw7ZjAc-M

عقده مع فيرناندو يقضي بتسليم غرناطة وخروج أبي عبد الله الصغير من الأندلس، ولكن سرعان ما نقض هذا الأخير العهد، وبدأت محاكم التفتيش في التعذيب و القتل و النفي، و بدأت هنا معاناة أهل الأندلس من المسلمين واليهود فقد كانت محاكم التفتيش تجبرهم على التنصير أو الموت، وقد تمسك أهل الاندلس بالإسلام ورفضوا الاندماج مع المجتمع النصراني"[1].

فدرويش يوضح العلاقة بين الزمان والمكان، ويؤكد على أهمية المكان على أنه العنصر الذي لا يزول من أصل الحكاية، فهو باقٍ برغم الألم وتغير الظروف والأحوال.

الزمن الضائع	الوطن الضائع (المكان الضائع)
لا يعود، فهذا الزمن عبارة عن أحداث أصبحت في ذاكرة النسيان؛ لأنه اقترن بفترة ضعف و شخصيات اندثرت ورحلت.	**قد يعود، و هنا اقترن الحرف (قد) بالفعل المضارع، حيث يفيد التشكيك و احتمالية العودة إلى الجنة المفقودة، فالتفاؤل الصادر من الاحتمالية سيأتي من رحم الألم و الظلام و المُدى، لأن هذا الوطن الضائع الذي سيعود يوما سيقترن بزمان وشخصيات مستقبلية مختلفة لم تأتِ بعد.**

في قصيدة (الكمنجات)، تكرر الفعل المضارع بشكل لافت دلالة على عمق الألم والمأساة الحاضر يوميا، نتيجة الشوق والحنين إلى زمان لا يعود ومكان قد يعود، فقد تكرر الفعل (يبكي) في القصيدة ثمان مرات، بالإضافة إلى أفعال أخرى حملت في طياتها معاني الألم والحرقة والحنين مثل (تُحرق، تُدمي، تتبعني، تبحث). وفي (يوميات الحزن العادي) يأتي درويش على معنى الفردوس المفقود و حذر من هذا المصطلح، "لأن القناعة به تسليم بحالة قانونية وجودية بلغت حد النهاية. الفرق بين الفردوس المفقود بالمعنى المطلق و بين الفردوس المفقود بالمعنى الفلسطيني هو خلو حالة الحنين والانتماء النفسي و الشرعي من منطقة الصراع. ما دام الصراع قائما، فإن الفردوس لا يكون مفقودا، بل يكون محتلا و قابلا للاستعادة. لا أعني الارتكاز على مفهوم خسارة المعركة، وعدم خسارة الحرب الذي ينطوي على دفاع عن النفس أمام خسارة المعركة. ولكني أعني أنه ليس بوسع الفلسطيني أن يعامل وطنه بهذا المفهوم، كما يعامل العرب الأندلس، و كما ينتظر المؤمنون الجائزة. إن بين فلسطين والأندلس فرقا يشبه الموت. و أن

[1] عبد الرحمن، نواف أحمد: حضارة الاندلس، الجنادرية للنشر و التوزيع، 2015، ص219.

بعض السياح الثوريين ممن ينظرون إلى المسألة من زاوية التشابه حسن النيّة و سيء النتيجة ينطلقون من موقع الجمالية الشكلية وضبط التضامن. إنهم سيبكون أكثر منك لو سلمت بهذا التشابه وحاصرت حقوقك ووجودك بسياج الحنين الملهم. ولكن حين يلجأ الحنين إلى البندقية تعبيرا عن بعد المسافة بين فلسطين والأندلس، فستجد هؤلاء السياح المغرمين ببكائيات الشعوب القديمة يحتجون على انتهاك جمال الانسجام التاريخي، إن فكرة الفردوس المفقود تُغري المفتقرين إلى موضوع مؤثر، ولكنها تصيب الحالة الفلسطينية بتراكم الدموع وفقر الدم. وهذا هو تفوق وطني على الجنة، لأنه يشبهها ولأنه ممكن"[1].

كان لمفهوم الحنين عند درويش (في حضرة الغياب) علاقة بالجنة المفقودة، وكأن هذه الصفة عبارة عن أشعة برّاقة في قلب كل فلسطيني يعيش حالة الانتماء، فالحنين هو أنين الحق العاجز عن استرداد شرعيته في الأرض، وأنين البيوت التي أصبحت رُكاماً تحت المستعمرات، هذا الحنين حبٌ متوارث يورّثه الغائب للحاضر.[2]

لقد كان لوجود حركات التحرر على الصعيد القومي العربي والفلسطيني أثر على القضية الفلسطينية بكونها ركيزة أساسية ومسوغا تفاؤليا قادرا على إعادة البوصلة في اتجاهها الصحيح وتصويبها نحو الهدف السامي الذي لا يحتمل المقارنة أو التبديل، وبالتالي احتضنت معانِيَ متجددة لواقع أفضل.

ثالثاً: عوامل الوحدة العربية والزعماء القوميون

ساعدت الوحدة الوطنية والقومية بقيادة زعماء القومية العربية في دعم القضية الفلسطينية وظهورها على الساحة العربية والعالمية، فقد كان تأثيرها على أكثر من صعيد:

الوحدة الوطنية الفلسطينية والقومية العربية:

تمثلت هذه الوحدة بقيادات عدة أبرزها:

الرئيس الراحل ياسر عرفات

يتحدث شاعرنا عن أبي عمار وكأنه الأب الحنون الذي يقف تحت ظله قائلا: "من منا لم يقف حائرا أمام قوة إيمانه بالعودة القريبة. كان بصره كبصيرته يخترق الضباب الأسود. كنت شاهدا عليه وهو يستعد لركوب البحر من بيروت إلى ما لا نعرف، إلى مجهول بعيد. سأله أوري أفنيري: إلى أين أنت

[1] درويش ، محمود: الديوان ، ج6، ص362.
[2] ينظر:المصدر السابق، ج5، ص471.

ذاهب؟ فردّ على الفور: إلى فلسطين. لم يُصدّق أحد منا هذا الجواب الهارب من الشعر. فلم تبدُ فلسطين، من قبل بعيدة كما تبدو من هذا البحر"[1]، وإذا ما تحدثنا عن الوطنية والقومية يجب أن ندرك الوحدة الداخلية بين القيادات والمثقفين وأهمها العلاقة التي تربط ياسر عرفات بالشاعر محمود درويش، فالعلاقة الجوهرية بينهما أسهمت في إنجاز مقومات أساسية ضرورية لتواجد الوحدة الوطنية في داخل فلسطين و خارجها، فمحمود درويش كان في منزلة الإبن لياسر عرفات، وكان يعتبر أبا عمار والده، حيث رافقه في جميع جولاته في بيروت وتونس ورام الله، إضافة إلى تمتع درويش ببعض المهمّات، فقد كان ممن يفهمون سياسة العدو الإسرائيلي فهماً جيداً، وكان أبو عمار يستشيره في الشؤون الإسرائيلية، وقد كلفه بكتابة الخطاب الرئاسي في الأمم المتحدة عام 1974م [2]. وقد كتب درويش أجمل قصائده عن ياسر عرفات منها، مديح الظل العالي، وقصيدة بيروت، ورثاء ياسر عرفات. يقول درويش في (قصيدة بيروت):

-هل ضاق الطريق

ومن خُطاك الدرب يبدأ يا رفيق؟

-مُحاصرٌ بالبحر والكتب المقدسة

-انتهينا؟

-لا. سنصمد مثل آثار القدامى

مثل جمجمة على الأيام نصمدُ

كالهواء و نظرة الشهداء نصمدُ ...

يخلطان الليل بالمتراس. ينتظران ما لا يعرفان

يخبِّئان العالم العربي في مِزَقٍ تسمى وحدةً ...[3]

الطريق الضيّق يحتاج إلى صمود الرّفاق والأمل بالغد المشرق الذي يعدنا بالأمنيات التي ستتحقق، ويصف محمود درويش ياسر عرفات بأنه "الناظر إلى الغد والعميق بالإيمان بالله وأنبيائه،

[1] درويش ، محمود: الديوان ، ج6، ص286-287.
[2] ينظر:أبو فخر، صقر: ياسر عرفات و المثقفون، مجلة فلسطيننا، ع316، 2013/12/2.
[3] درويش، محمود: الديوان ، ج2، ص523-524.

عميق الإيمان أيضا بالتعددية الثقافية والدينية التي تمنح هذه البلاد خصوصيتها، التعددية المضادة للمفهوم الحصري الإسرائيلي. و كان في بحثه الديناميكي عن الغد في الحاضر يبحث عن الالتقاء، يشكّل سداً أمام الأصوليّات. لم يكن تديُّنه حائلا دون علمانيته. ولم تكن علمانيته عبئاً على تدينه. فالدين لله والوطن للجميع"[1].

في (قصيدة بيروت) يستخدم درويش بعض الرموز الخاصة التي لها وقع خاص على مسيرة الشعب الفسطيني، وضحتها كما يلي:

الرمز	الدلالة
الطريق/الدرب	الطريق هو السبيل وهو ما بين السكتين من النخل[2]، أما الدرب، فقالوا: الدرب باب السكة الواسع[3]. نستنتج مما سبق أن الطريق هو مسيرة الشعب الفلسطيني التي لا تنتهي ولا حل لها إلى الآن، أما الدرب فهو نافذة الشعب المطّلعة على المستقبل المشرق الآتي. و قد أجاب درويش حين سئل عن ثنائية الطريق و البيت قائلا: "كثيرون من الشعراء منذ هوميروس كتبوا عن ثنائية الطريق والبيت، كنت دائماً أميل إلى تمجيد الطريق، والطريق بؤرة أساسية في الرؤيا الشعرية والصوفية، هذه الثنائية تتناولها أوليات مختلفة. عندما كنت خارج الوطن، كنت أعتقد أن الطريق سيؤدي إلى البيت وأن البيت أجمل من الطريق إلى البيت. و لكن عندما عدت إلى ما يسمى البيت وهو ليس بيتا حقيقياً غيّرت هذا القول و قلت: ما زال الطريق إلى البيت أجمل من البيت لأن الحلم ما زال أكثر جمالاً وصفاءً من الواقع الذي أسفر عنه

[1] المصدر السابق، ، ج6، 286.
[2] ينظر: ابن منظور، لسان العرب، ج10، مادة طرق، ص219.
[3] ينظر: المصدر السابق، مادة درب، ج1، ص374.

	هذا الحلم. الحلم يتيم الآن. لقد عدت إلى القول بأولية الطريق إلى البيت"[1].
البحـــــر	يدل على الضياع والمتاهة في حياة الشعب الفلسطيني، فهو رحلة نحو المجهول توحي بعدم الاستقرار.

احترم درويش شخصية أبي عمار كونه رمزاً قد رفض الغياب، "فنحن محتاجون إلى الرموز، رمزٍ لتاريخ شعب وتحولات هذا الشعب من الغياب الكامل إلى لاجئين فإلى مقاتلين فإلى مؤسسي مشروع وطني ثقافي، ثم إلى حضور كثيف في خارطة العالم. ياسر عرفات من الذين استطاعوا أن يعيدوا اسم فلسطين إلى الوعي العالمي، قدّم كل حياته للقضية ولم يعش لنفسه أبدا، أريد أن أرى هذه الصورة باقية. نفتقد عرفات لكننا لا نريد عرفات آخر، وأنا من الذين يقولون أننا لا نحتاج إلى عرفات آخر، لا نحتاج إلى رمزية عالية، نحتاج إلى مديرين جيدين. كان عرفات يتمتع بمزايا لا يمكن أن تُورث أو تُورّث. ومن الصعب أن نستنسخ شخصية مثله، وهذه الشخصية أنهت دورها ولم تعد قابلة للاستعادة، لكن تاريخه هو القابل للاستعادة، وكذلك تضحياته. إنه سجل مضيء في ذاكرة الفلسطينيين، لكننا لسنا في حاجة إلى عرفات جديد"[2].

2- القيـــــــادات القوميـــــة العربية:

تمثلت هذه الوحدة بقيادات عدة أبرزها :

جمـــــــــال عبـد الناصـــــــــر

هو ثاني رؤساء مصر والذي لم يعمّر طويلا، وهو من القادة الذين تبنوا الفكر الاشتراكي، نادى بضرورة وحدة القومية العربية و القضاء على إسرائيل، فلا يمكن قراءة تاريخه والتعرف إلى جوانبه الفكرية والثقافية، من دون الاطلاع على ما خطه قلمه من وثائق مكتوبة في حرب فلسطين [3]، ذلك لأن مصر كانت تحارب لأجل فلسطين من أجل الدفاع عن شرف البلد، والتصدي لأي عدوان يمس دول الوطن العربي كوطن قومي واحد، و أسهمت المؤثرات القومية العربية بدورها في تطور الحركة

[1] سنكون يوما ما نريد، وزارة الثقافة، حاوره: عبده وازن-جريدة (الحياة) اللندنية، 2005/12/14، ص119.
[2] سنكون يوما ما نريد، وزارة الثقافة، حاوره: عبده وازن-جريدة (الحياة) اللندنية، 2005/12/14، ص116.
[3] ينظر:عزب، خالد، وآخرون: بقلم جمال عبد الناصر، رؤية تحليلية،ط1، أطلس للنشر والإنتاج الإعلامي، القاهرة، ص55.

الشعرية في فلسطين باعتبارها جزءاً من الحركة الشعرية في الوطن العربي وتأثر الجزء بالكل، فانتماء الشاعر الفلسطيني لهويته الفلسطينية هو جزء من انتمائه لهويته العربية [1]. يقول درويش في قصيدة (نشيد):

نعم! عربٌ

ولا نخجل

و نعرف كيف نمسك قبضة المنجل

و كيف يقاوم الأعزل

و نعرف كيف نبني المصنع العصري

و المنزل

ومستشفى

و قنبلة

و صاروخا

و موسيقى

و نكتب أجمل الأشعار ...[2]

أُعجب درويش بشخصية جمال عبد الناصر و كتب بعد وفاته قصيدة بعنوان (الرجل ذو الظل الأخضر) قال فيها:

نعيش معك

نسير معك

نجوع معك

[1] ينظر:أبو شاور، سعدي: تطور الاتجاه الوطني في الشعر الفلسطيني المعاصر، ط1، المؤسسة العربية للدراسات و النشر، بيروت، ص53.
[2] درويش، محمود: الديوان ، ج1، ص160.

و حين تموت

نحاول ألّا نموت معك![1]

وجمال عبد الناصر باعتباره زعيماً عربياً كان قدوة يُحتذى بها في الصدق والدفاع عن الأماني القومية، فأصبح رمزاً مهماً من رموز الحركة الوطنية المُعاصرة بسبب إخلاصه المُتفاني في خدمة الجماهير [2].

يقول درويش:

وأنت وعدت القبائل

برحلة صيف من الجاهلية

وأنت وعدت السلاسل

بنار الزنود القوية

وأنت وعدت المقاتل

بمعركة .. ترجع القادسية[3]

فجمال عبد الناصر كان كالمارد الذي سيصنع المستحيل ويُعيد الحق لأصحابه، والذي أحبته الشعوب العربية وأيقنت أنه قادر على تنمية الروح القومية في قلوب العرب، فقد كان مثالاً مشرقاً للحاكم العربي في نظر الشاعر، وعلى وشك أن يحمل قنديل الخلاص للشعب الفلسطيني، ولكن سرعان ما انهارت هذه الصورة حينما لم تتحقق وعوده بعد أن تولى أنور السادات منصة الحكم ووقع اتفاقية سلام مع الصهاينة[4]. ومن خلال المقطع السابق نلاحظ تدرج شخصية جمال عبد الناصر على ثلاث مراحل، من خلال تكرار الشاعر للفعل (وعدت):

المرحلة	الغاية
المرحلة الأولى	ضرورة تعديل المسار الوطني و القومي و قيادة

[1] المصدر السابق، ج1، ص374.
[2] ينظر:شرف، سامي: سنوات و أيام مع جمال عبد الناصر، ج1، ط2، دار الكتب المصرية، القاهرة، 2014، ص85.
[3] درويش، محمود: الديوان ، ج1، ص375.
[4] ينظر: شاكر، تهاني: محمود درويش ناثرا، ط1، المؤسسة العربية للدراسات و النشر، بيروت، 2004، ص129.

(وأنت وعدت القبائل برحلة صيف من الجاهلية)	الشعوب نحو التحرر الفكري.
المرحلة الثانية **(وأنت وعدت السلاسل بنار الزنود القوية)**	الحث على الثورة العربية ومقاومة الاحتلال الصهيوني واستعادة الأراضي العربية، فالسلاسل رمز يستخدمه الشاعر عادة للدلالة على الاحتلال.
المرحلة الثالثة **(وأنت وعدت المقاتل بمعركة تُرجع القادسية)**	الثبات على المبادئ والدفاع عن الأرض وتحريرها من الاحتلال عن طريق المقاومة التي ستعيد الأرض إلى أصحابها الأصليين من جديد.

وقد جاء اللون الأخضر في القصيدة ذاتها حاملا معه رمزا تفاؤلياً خاصاً، فالشاعر "يُعدد مناقب (جمال عبد الناصر) ومآثره في ذكراه-ليدل على خلود صاحبه، ودوره في بعث الأمة العربية. وتتعمق دلالتها على البعث والتجدد والخصب بتوحد الشهيد في قصيدة (عائد إلى يافا) بالأرض الفلسطينية. وتتجلى عبر صور روحية"[1]، منها:

هو الآن يرحل عنا

و يسكن يافا

و يعرفها حجرا ... حجرا

ولا شيء يشبهه

و الأغاني

تقلده

تقلد موعده الأخضرا[2]

فبعد إبعاد درويش عن فلسطين، أقام شاعرنا في بعض الدول العربية، ومن خلال معايشته للواقع العربي، استطاع التوصل إلى مصدرين للموت للإنسان الفلسطيني، اعتبر أن الخنجر الصهيوني هو

[1] أبو خضرة، سعيد: تطور الدلالات اللغوية في شعر محمود درويش، ص118.
[2] درويش، محمود: الديوان ، ج2، ص47.

المصدر الأول، فيما عدّ أكذوبة العرب لتحرير فلسطين مصدراً ثانياً [1]. يصدح شاعرنا في قصيدة (مزامير) بقوله:

أيها الوطن المتكرر في الأغاني و المذابح،

دُلّني على مصدر الموت

أهو الخنجر .. أم الأكذوبة؟[2]

بالرغم من استمرار الألم والعذابات المتكررة في حياة الشعب الفلسطيني، و"رغم الحروب الخمس التي مرت ملأى بالهزائم العربية، فإن درويشا مع انطلاقة الثورة الفلسطينية وشروق شمس الانتفاضة ضد العدو الغاصب، يعتبر الولادة قادمة من رحم الموت، فالتحرير قادم و استقلال أرضه لا بد أن يتم على أيدي الثوار الذين يتكاثرون مع استشهاد الشهداء في سبيل انتزاع الحبيبة-الأرض من مخالب الاحتلال ويشهد درويش بتفاؤل أن الزمان يُخبئ له سنبلة"[3]:

و أشهد أن الزمان يخبئ لي سنبلة[4]

فالشاعر محمود درويش "يبني مبادئه النضالية على وجوب التفاؤل بغد مشرق مهما كثر قمع العدو و استبداده فوق الأرض الفلسطينية، و يرى في بداية ديوانه أن السجن و القيود و الليل أمور تزول مع نهوض الثوار الكثيرين و أن دفن السنبلة الواحدة في الأرض سيخلق سنابل لا تحصى، و يبشر السجين الفلسطيني المقموع بزوال القمع مع بزوغ فجر الثورة"[5]:

سنبلة تموت ستملأ الوادي سنابل[6]

يوضح بعض الأدباء رأيهم في العلاقات بين العرب و الفلسطينيين، فالأديب محمود شقير مثلا يرى أنه كان للشعوب العربية دور في تبني القضية الفلسطينية، خاصة في مصر زمن القائد جمال عبد الناصر، و يضيف شقير قائلا: "عندما قامت الثورة المصرية سنة 1952، لفت الأساتذة نظرنا إلى أن هذه الثورة تخدم القضية الفلسطينية، و أذكر أنه في 1955، 1956 كانت الحياة السياسية نشطة جدا في الضفة

[1] ينظر:مغنية، محمد: الغربة في شعر محمود درويش (1982-1972)، ط1، دار الفارابي، بيروت، 2004.
[2] المصدر السابق، ج2، ص20.
[3] المرجع السابق، ص163.
[4] المصدر السابق ،ج2، ص295.
[5] مغنية، محمد: الغربة في شعر محمود درويش ، ص164.
[6] درويش، محمود: الديوان ج1، ص21.

الغربية التي كانت جزءاً من الأردن، و كنت أقرب إلى أفكار عبد الناصر الذي اشتهر بعد حرب السويس 1956"[1].

يؤكد درويش في هذا القسم أن وجود قادة وزعماء يُحتذى بهم على أرض الوطن من أهم الدوافع القوية التي شكلت مسوغا تفاؤليا بالعودة القريبة العاجلة، فالقدوة الحسنة في المسار الوطني والساعية في خطاها نحو التحرر والاستقلال ما تزال تحفر أثرها في ثنايا الصخر الذي يقاوم بطبيعته ظواهر وعوامل التعرية التي يبثها الاحتلال الغاشم.

رابعاً: الدور الثقافي/الثقافة العربية والإسلامية

كان للدور الثقافي في داخل فلسطين و خارجها إسهامٌ فاعلٌ في إيصال رسالة الشعب الفلسطيني إلى العالمين العربي والإسلامي. وذلك يبرز من خلال الدور الفاعل للسلطة الفلسطينية حين أسست وزارة الثقافة، التي اشتملت على إدارة عامة للممتلكات الثقافية وأعدت قانوناً لحماية هذه الممتلكات، وسعت لتعريف العالم بالجرائم الإسرائيلية ضد التراث الفلسطيني، مما ساعد على تبني مكتب لجنة التراث العالمي لمشروع يخص الاعتداءات الإسرائيلية على مواقع التراث الثقافي والأماكن المُقدسة بالأراضي الفلسطينية[2]. فالاحتلال يسعى إلى تنغيص حياة الفلسطينيين في شتى الجوانب، من استيلاء على الأرض وكل ما يتعلق بهذه الأرض من مقدسات وأماكن دينية وتراثية. و بالرغم من ذلك يتوجه محمود درويش لمواساة أبناء شعبه وحثه على الثبات على الأرض والتفاؤل بما هو آت:

[1] دعنا، ديما: شهادات أيام زمان "مقدسيون يروون الحكاية"، ط1، وزارة الثقافة الفلسطينية، البيرة، 2016، ص296.
[2] ينظر:حواس، زاهي: آثار و أسرار، ج1، ط1، نهضة مصر للنشر و التوزيع، 2007، ص158.

يا دامي العينين و الكفين!

إنّ الليل زائل

لا غرفة التوقيف باقية

و لا زَرَد السلاسل!

نيرون مات، ولم تمت روما ...

بعينيها تقاتل!

و حبوب سنبلة تموت

ستملأ الوادي سنابل ...![1]

من البديهي أن ندرك "إن استمرار الوصف حول النهاية المرة التي سينقلب إليها الظالمون، و بالتفاؤل المشرق الذي يسوّغ الدفاع عن وجود الضحية وحقها في الحياة –ستظل تعيد الخطاب المشحون إلى المتلقي الحيادي، حتى يجعله يتقاسم مع المخاطب اعتقاده و امتناعه، و ربما يؤثر في المتلقي فيجعله في دائرة القول أو الفعل الذي يريده المرسل، و ذلك حتى يحكم بأن ما يجري من اتهام مخالف للسنن والشرائع، فالحديث عن(الموت) في القصيدة وارتباطه بمعاناة الضحية يغدو في النهاية تفاؤلا ونصرا"[2].

تناصّ الشاعر الأسطورة وحكاية نيرون التي تمثلت صورة الحاكم الطاغية الذي يعربد في البلاد، وبقاء روما شاهدة على أفعاله، وكما قلت سابقا يبقى عنصر الزمان والشخصيات في أي حدث تاريخي غير ثابت، ويبقى المكان هو العنصر التاريخي الحاضر والمتجدد على مدى العصور لأنه الشاهد الحي على الحقيقة. فنيرون هو أحد النماذج التاريخية التي مثلت صورة الحاكم الظالم الدكتاتوري، الذي أحرق روما عاصمة امبراطوريته، فنيرون بالنسبة للفلسطيني هو الرمز المُباشر الدال على الحركة الصهيونية [3].

[1] درويش، محمود: الديوان ، ج1، ص21.
[2] مواسي، فاروق: محمود درويش، قراءات في شعره، ص54.
[3] الحروب، خالد: في مديح الثورة، النهر ضد المستنقع، ط1، بيروت، 2012، ص38-39.

عندما نتحدث عن الدور الثقافي العربي والفلسطيني لا بد من مراعاة أمورعدة ضرورية "يقول الأول منها: تندرج في الثقافة الفلسطينية جملة الكتابات التي آمنت، وتؤمن بعروبة فلسطين وبحق العرب الفلسطينيين في الدفاع عن حقوقهم التاريخية والإنسانية. إن هذه الفكرة، التي تنطلق من معنى القضية لا من جنسية الأقلام التي دافعت عنها، توسّع هذه الثقافة توسيعاً كبيراً، جاعلة من الثقافة العربية ثقافة فلسطينية، ومن الأخيرة ثقافة عربية بامتياز. فالكثرة الكثيرة من الأقلام العربية، في إبداعاتها المختلفة، عيّنت فلسطين سؤالا جوهريا بين أسئلتها المختلفة. لا غرابة، و الحال هذه، أن تحتل فلسطين موقعها المنتظر في كتابات عبد الله العروي و قسطنطين زريق و جمال حمدان، وصولاً إلى إبداع أدبي، من وجوهه سعد الله ونّوس و أمل دنقل و مؤنس الرزاز و إلياس خوري و غيرهم. أما الأمر الثاني فيتعامل مع خصوصية الثقافة الفلسطينية، التي أنتجها مثقفون فلسطينيون عاشوا مع شعبهم تجارب الاقتلاع واللجوء والمعاناة، أو بقوا في فلسطين وعرفوا عسف الاحتلال الصهيوني. وإذا كان غسان كنفاني وجبرا إبراهيم جبرا وسميرة عزام وناجي العلي، قد عالجوا الوجه الأول، فقد عبّر إميل حبيبي وتوفيق زيّاد وإميل توما عن الوجه الثاني. تضمنت هذه الكتابات، في الحالين، تسجيلا للقيم الفلسطينية الإنسانية، من ناحية، وبراهين عن الإبداع الأدبي-الفني الفلسطيني في مجالات متعددة"[1].

لعل الدور الثقافي الفلسطيني والعربي جسده بعض الشعراء العرب عن طريق الاستشهاد ببعض رموز الشعر العالمي الذين تركوا بصمة فاعلة على الساحة الأدبية لمن سيأتي خلفهم، ومن أبرزهم الشاعر الإسباني (لوركا) الذي اتخذه درويش صرحاً ثقافياً بارزاً لإيصال الفكرة السامية للشعب، يقول شاعرنا:

عفوَ زهر الدم، يا لوركا، و شمس في يديك

و صليب يرتدي نار قصيدة.

أجمل الفرسان في الليل ... يحجّون إليك

بشهيد .. و شهيدة

هكذا الشاعر، زلزال .. و إعصار مياه

و رياح، إن زأر

[1] صالحية، محمد عيسى، و آخرون: مشاعل عربية على دروب التنوير، ط1، المؤسسة العربية للدراسات و النشر، بيروت، 2009، ص102.

يهمس الشارع للشارع، قد مرت خطاه

فتطاير يا حجر![1]

من خلال المقطع السابق يأتي الدور الثقافي محملا بشذرات من دوافع الثورة المتمثلة بالكلمة الصادقة والواعية في آنٍ واحد، و يتبين ذلك من خلال بعض الرموز ودلالتها المرتبطة بأكثر من جانب:

الرموز	المعنى الدلالي	المصدر
الدم، الشمس، الصليب، النار/ رموز لها جذور ثابتة مقدسة	الثقافة مصدر متجذر مرتبط بالأرض المقدسة وبالرمز التاريخي الأسطوري، فالعلاقة بين الصليب والدم تتمثل بالتضحية، أما الشمس و النار فكلاهما مصدر للحرية والثورة.	المرسِل/ هو الشاعر صاحب الفكرة و الثقافة الواعية فهو صاحب الفعل المتمثل بصياغة الرسالة الداعمة.
الليل، يحجون، الشهيد/ رموز دينية متحولة	التركيز على الهدف و تحدي الظلم للوصول إلى الغاية المحققة، فعندما يبث الشاعر المثقف ثقافته الواعية للشعب، يتلقى اهتماماً واضحاً و تفاعلاً مستمرا.	المستقبِل/ هو الشعب المتلقي لهذه الرسالة فهو صاحب رد الفعل الذي يتكفل بضرورة الاستجابة للرسالة التي يتلقاها.
زلزال، إعصار، مياه، رياح/ رموز من الطبيعة	التفاعل بين المرسل و المستقبل، أي بين الشاعر المثقف من خلال دوره الثقافي و الشعب المتلقي لهذه الرسالة الثقافية هي علاقة طبيعية لتأدية الدور الفاعل للوصول للغاية المطلوبة.	استجابة الشعب للرسالة المتمثل بالثورة (زلزال، إعصار) والمضي قدما أو عدم الاستجابة للرسالة.

[1] درويش، محمود: الديوان ، ج1، ص75.

فالشاعر هو الجندي المجهول الذي يقف خلف مكتبه المتواضع كقاعدة عسكرية، ويثبت دائما في محيطها للحفاظ على توازنه باستخدام سلاحه الأسطوري المتمثل بقلم المقاومة الذي يبث الوعي في العقول المتشوقة إلى الغد الموعود، فقد ارتبط درويش وزملاؤه من شعراء فلسطين في أذهاننا بنهوض الشعب الفلسطيني بفئاته كافة مطلع الستينيات من القرن العشرين، لاستعادة الهوية واستعادة الوطن، مما دفع كثيراً من المثقفين الفلسطينيين في الأرض المحتلة عام 1948م إلى السعي نحو خلق هوية للأدب الفلسطيني رغم التحديات التي تواجههم، فأجمع بعضهم على إنشاء حركة الأرض للتعبير عن آرائهم وأقوالهم [1].

فالشاعر المثقف يعي أن "إثراء الثقافة يأتي من عمق التفاعل مع الحياة والانحياز لمفردات المستقبل في الكتابة والغناء والمسرح والسينما والفنون التشكيلية، لهذا تصبح الثقافة عنوان الشعوب في سعيها لتكوين مجالها الحيوي وفضائها الإبداعي القادر من جهة على صون التاريخ والذاكرة، ومن جهة أخرى تحفيز الإبداع ليتخذ مسارات متجددة "[2].

ولا بد من توضيح العلاقة بين الهوية والثقافة حيث يُعد كلٌ منهما دلالة على الهوية الثقافية الفلسطينية، انطلاقاً من الأحداث المؤلمة التي تعرض لها الشعب الفلسطيني في المنفى وفي الوطن المُحتل، إضافة إلى الممارسات العملية التي شكلت ركيزة أساسية للتحرر الوطني والإنساني، وبذلك تكون الهوية مشروعاً تحررياً منفتحاً على المستقبل، في حين أن الثقافة تكون مُصاحبة لها بصفتها وعياً بالاضطهاد والظلم الواقع والحث على ضرورة تجاوزه[3].

يأخذنا درويش في جولة ثقافية ويحدثنا عن طبيعة انتصار المثقف الفلسطيني وهزيمته والركائز الأساسية التي يجب أن يعتمد عليها حيث يقول: "لا أعرف إلى أي حد أنا مهزوم أو منتصر. ربما أنا منتصر باللغة الشعرية، ربما انتصاري هو الشعر، وهذا إن كان صحيحا فهو تفوق حضاري وثقافي مهم. الإسرائيلي منتصر بالسلاح النووي و الطائرات ... أنا أعتبر نفسي منتصرا بالقصيدة. الطائرة تسقط أما القصيدة فلا تسقط إن كانت جميلة. الخطر أن يكتب شعر جميل لكن الشعراء الذين يكتبون شعرا جميلا ليسوا مع الحرب"[4]. ولأن درويش لا ينتصر إلا بالشعر فقد تميز بظاهرة لافتة وبارزة في قصائده وهي

---

[1] ينظر:الديك، نادي: محمود درويش الشعر و القضية، ط1، دار الكرمل للنشر و التوزيع، 1995، ص27.

[2] بسيسو، إيهاب: الثقافة في مواجهة رواية الاستعمار، مجلة فلسطين الشباب-وزارة الثقافة، رام الله، عدد 129، أيلول 2017، ص6-7.

[3] ينظر: درّاج، فيصل: ذاكرة المغلوبين، الهزيمة و الصهيونية في الخطاب الثقافي الفلسطيني، ط2، وزارة الثقافة الفلسطينية، البيرة، 2017، ص386-387.

[4] سنكون يوما ما نريد، بيضون، عباس، محمود درويش: علينا إعطاء الشعر جماليات تمنحه إمكانية العيش في زمن آخر و في وعي آخر، جريدة السفير اللبنانية، 2003/11/2، ص77.

التحول من أسلوب إلى آخر، فقد برع في الشعر الغنائي الحسي كما كان أستاذه نزار قباني، إلى أن انتقل إلى الشعر الملحمي والإنشاد للحياة في رائعته (جدارية)[1].

أرى السماء هناك في متناول الأيدي.

و يحملني جناحُ حمامةٍ بيضاءَ صوبَ

طُفولةٍ أخرى. و لم أحلم بأني

كنت أحلُم. كُلُّ شيء واقعي. كنتُ

أعلمُ أنني ألقي بنفسي جانبا ...

و أطيرُ. سوف أكون ما سأصيرُ في

الفَلَكِ الأخير. و كلُّ شيء أبيضُ[2]

ساهم الدور الثقافي في فلسطين في فرز نتاجات ثقافية جديدة على الساحة الوطنية، خاصةً بعد ظهور منظمة التحرير الفلسطينية، فقد أصبح المشروع الثقافي يقوم بمهمات جديدة، من أهمها: التعريف بالشعب الفلسطيني عن طريق إيجاد مؤسسات راعية للشؤون الثقافية [3].

فالتطور الثقافي كان حاضرا في مستويات عدة، فقد تطورت تجارب الشعراء والأدباء الفلسطينيين في منتصف الستينيات خاصة بعد ظهور شعر الأرض المُحتلة الذي تمثل بـ: محمود درويش، وسميح القاسم، وتوفيق زيّاد، وراشد حسين وغيرهم، فقد ساهموا في إعلاء مكانة الشعر الحديث في الوطن العربي [4].

حينما نتكلم عن الثقافة، فلا بد من التطرق لعاصمة الثقافة والتراث الحضاري العربي والإسلامي، تلك المدينة القابعة تحت وطأة الاحتلال الغاشم، مدينة القدس المحتلة، فالخطاب الثقافي يجب عليه احتواء هذه المدينة التاريخية، لأن طرد الشعب الفلسطيني من أرضه واستيلاء الاحتلال عليها يعدّ خطوة تاريخية

[1] انظر: فضل، صلاح: محمود درويش، حالة شعرية، ط1، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، 2010، ص16.
[2] درويش، محمود: الديوان ، ج4، ص441.
[3] ينظر:المشروع الثقافي الفلسطيني و استراتيجيته المستقبلية، ط1، المجلس الأعلى للتربية و الثقافة، رام الله، أوراق ندوة القاهرة 24-26 تموز- يوليو 2003، ص25.
[4]ينظر: المرجع السابق، ص27.

متغيرة تؤدي إلى تغير مسار الحضارة، فيجب علينا كفلسطينيين أن يكون خطابنا الثقافي بعيداً عن العبث والتطبيع، لأن ذلك يؤدي إلى ضياع القدس[1].

في القدس، أعني داخل السور القديم،

أسير من زمن إلى زمن بلا ذكرى

تُصوّبني. فإن الأنبياء هناك يقتسمون

تاريخ المقدس ... يصعدون إلى السماء

و يرجعون أقلّ إحباطا و حزنا، فالمحبّة

و السلام مقدّسان و قادمان إلى المدينة.[2]

بعد نكبة فلسطين، أصبح الشعب في مواجهة فكرية وسياسية ضد الصهيونية، وكان لا بد من التلاحم الفكري بين الأمة العربية عن طريق بث القصائد الواعية والرد على أشعار بعض اليهود، فأحس الأدباء أنهم في المنفى، وثقافة المنفى لاتكتمل إلا بثلاثة: على أرضٍ هي لك ووسط شعبٍ هو لك وفي نظامٍ هو لك، فلنا الأرض والشعب ولكن النظام تمثل بعدو فرض حاله علينا [3]، وتظل لافتة درويش الشعرية المعروفة من قصيدته (سجل أنا عربي) مؤشرا على عمق الثقافة التي ينبغي أن يتسلح بها الفلسطيني دوما:

سجل!

أنا عربي

و رقم بطاقتي خمسون ألف

و أطفالي ثمانية

و تاسعُهم ... سيأتي بعد صيف!

---

[1] ينظر:طه، المتوكل: نصوص المدينة، القدس، عمادة البحث العلمي و الدراسات العليا، جامعة القدس المفتوحة، الماصيون-رام الله/فلسطين، 2015، ص232-233.

[2] المصدر السابق، ج4، ص51.

[3] ينظر:ناطور، سلمان: رحلة سبعة و ستين عاما، ط1، وزارة الثقافة الفلسطينية، البيرة، 2017، ص126.

فهل تغضب؟[1]

فالدور الثقافي العربي داخل الأرض المحتلة و خارجها شكل سدا منيعا في الدفاع عن الأرض ورسالة توعية خالصة للعالم أجمع لفهم واقع الشعب الفلسطيني الذي سُلبت منه أرضه، ولا بد من مواصلة العمل الثقافي على مختلف الأصعدة كجانب من جوانب التحدي و الثبات على تراب الوطن، واعتباره عاملاً بارزاً في مواصلة النظرة الثاقبة نحو أُفق الإيجابية المستقبلية الواعدة.

خامساً: العوامل الخاصة بالعدو الإسرائيلي

يتصف الجانب الإسرائيلي بالغموض وعدم الوضوح في اتخاذ القرارات المصيرية على الأرض، ولعل أحد العوامل التي شكلت فاصلة تاريخية في ترجيح كفة الميزان لصالح الشعب الفلسطيني هو تهرب العدو الإسرائيلي من الالتزام بالقرارات، وهذا ما أشار إليه درويش في شعره من خلال الحديث عن الوجه الحقيقي للاحتلال، فالتهرب وعدم الانصياع لقرارات الأمم المتحدة واحترامها، يُعدّ عاملاً واضحاً من عوامل الأمل والتفاؤل المستقبلي، ولعل سبيل الكذب و التضليل هو سبيل قصير لا يوصل إلا إلى خراب عيش من يدعي أحقيته بأرض احتلها وطرد أهلها منها.

[1] درويش، محمود: الديوان ، ج1، ص80.

فقد بنت الحركة الصهيونة أيديولوجيتها من خلال فرض الوجود اليهودي على أرض الواقع بتوافر عناصر أساسية عدة منها: الأرض، واللغة، والسيادة السياسية، فقد صارت اللغة العبرية لغة رسمية لإسرائيل بعدما كانت هذه اللغة تُستخدم في الطقوس الدينية فقط. وسعت الحركة الصهيونية إلى جعل فلسطين مركزاً جغرافياً استعمارياً ليهود العالم، حيث توقعت ان 72% من الأجيال الشابة ستعيش في إسرائيل مستقبلاً [1]. هذا الرأي مثّل وجهة النظر الإسرائيلية ومساعيها الدائمة نحو التخطيط الأفضل لصالح يهود العالم وضرورة إقامتهم على أرض فلسطين، هل سينجح اليهود في تهويد الأرض كاملة على المدى القريب حسب تخطيطهم؟ أم أن هناك احتمالية الصحوة واليقظة العربية التي ما تلبث أن تغفو قليلا حتى تأخذ جرعات بنكهة الانتصار من ماضٍ لم يتلاشَ غباره من خيوط الذاكرة بعد؟ لا بد من وجود التحدي في هذه الحالة، لأن الوضع سيكون مستنفرا ويجب على كل طرف أن يثبت أحقيته بنسبة الأرض إليه. وهنا يُدلي الشاعر بعض كلماته في (أرى ما أريد 1990) والتي شكلت بلسما ونسيماً بارداً لمواساة شعبه فيقول:

.. و أنا أنظر خلفي في هذا الليل

في أوراق الأشجار و أوراق العمر

و أحدّق في ذاكرة الماء و في ذاكرة الرمل

لا أُبصر في هذا الليل

إلا آخر هذا الليل

دقّات الساعة تقضم عمري ثانية ثانية

و تُقصّر أيضا عمر الليل[2]

يتمتع درويش بالبصيرة النفاذة التي تُنبت من الأشواك ورداً ربيعية، "فهو يرى نهايات هذا الليل (الممر الطويل) أو نهايات طرف منه .. على باب إحدى المدن، إنه لن يكون سرمدا. وحينها سيلقي بمفكرته التي ازدحمت بالخواطر السّود في مقاهي التشرّد على الرصيف ليُنهي بذلك مرحلة سوداء مرت

[1] ينظر:مازور، آدام: إسرائيل 2020، الخطة الشاملة لإسرائيل في سنوات الألفين، المركز الفلسطيني للدراسات الإقليمية، البيرة، ص4.
[2] درويش، محمود: الديوان ، ج3، ص179.

به. وسيضع حدا للضياع و الغياب. وسيركب ظهر السفينة، سفينة العودة. وسيُجلس الغياب على مقعد فوق إحدى السفن، إنها سفينة العودة التي تنهي تشرده"[1].

ضاق شاعرنا ذرعا بالعدو الذي يحاصره و يحاصر شعبه، فهو لا يجد حلولا منصفة منه لا من قريب ولا من بعيد ويتهرب ولا يقوى على المواجهة، وحينها جاء ردّ شاعرنا مزلزلا على مختلف الأصعدة في قصيدته (عابرون في كلام عابر) التي انفجرت كعينِ ماء صافية في قلوب الفلسطينيين، في الوقت الذي كانت فيه بركانا غاضبا على الأعداء:

أيها المارون بين الكلمات العابرة

احملوا أسماءكم وانصرفوا

و اسحبوا ساعاتكم من وقتنا وانصرفوا

و خذوا ما شئتم من زرقة البحر ورمل الذاكرة[2]

نلاحظ في النص السابق أن "شخصية الإسرائيلي مغيبة في السطور، وإن كانت حاضرة متخيلة في الخطاب المتواصل، (أيها المارون بين الكلمات العابرة) التي كررها ست مرات، حيث يستخدم في كل مرة أفعال الأمر التي ينتقيها من أجواء سياسية و تأريخية أو يومية. فالخطاب يوحي بخطاب الآخر المُغيّب، لكنه لا يفصح عنه مباشرة"[(3)].

أيها المارون بين الكلمات العابرة

منكم السيف-و منا دمنا

منكم الفولاذ و النار-و منا لحمنا

منكم دبابة أخرى-و منا حجر

منكم قنبلة الغاز-و منا المطر

و علينا ما عليكم من سماء أو هواء

---

[1] الحديدي، صبحي: زيتونة المنفى، ط1، المؤسسة العربية للدراسات و النشر، بيروت، 1998، ص142.
[2] مؤسسة القدس للثقافة و التراث www.alqudslana.com
[3] مواسي، فاروق: محمود درويش، قراءات في شعره، ص50.

فخذوا حصتكم من دمنا و انصرفوا[1]

يوظف درويش في القصيدة أسلوبه الساخر من العدو، ويعتبر قصيدته رسالة لكل متلقٍ إسرائيلي لديه المنطق على فهم الواقع، فهو يقارع الحجة بالحجة. فقد أثارت هذه القصيدة الضجة والهلع في الوسط الإسرائيلي أثناء الانتفاضة الأولى، مما أدى إلى غضب رئيس الحكومة الإسرائيلية آنذاك، فقد ظنوا أن الفتى الذي هُجّر من قريته البروة سيُهزم من الداخل ويبكي على أطلال بيته المُدمّر، ولكن وجدوه ثابتاً يحلم بالعودة ولا يستسلم [2].

بالرغم من التفاؤل الذي يكتسي روح الشاعر إلا أنه مختلط بجزء من الحزن المتمثل بالألم المؤقت في قصيدته (إلى قارئ):

الزنبقات السود في قلبي

و في شفتي ... اللهب

من أي غابٍ جئتني

يا كلّ صلبان الغضب؟

بايعت أحزاني ..

و صافحت التشرّد والسّغب

غضبٌ يدي ..

غضبٌ فمي ..

و دماءُ أوردتي عصيرٌ من غضب![3]

فالزنبق "يصير في قوله: (الزنبقات السود في قلبي) أسود، متحولا عن طبيعته ذات الدلالة على التفاؤل، ليشير إلى إغراق الشاعر في إحساسه بالحزن المتمثل بواقع الاحتلال"[4]. فقد "كان شعر محمود درويش يعبر عن روح التفاؤل حين كان في الأرض المحتلة لكن بعد خروجه أخذت هذه الروح تتناقص

[1] مؤسسة القدس للثقافة و التراث www.alqudslana.com
[2] ينظر:خوري، إلياس: الشاعر و الأوغاد... محمود درويش في شرك الغواية، صحيفة الأيام الفلسطنية، 2016/9/20.
[3] درويش، محمود: الديوان، ص15.
[4] أبو خضرة، سعيد: تطور الدلالات اللغوية في شعر محمود درويش، ط1، المؤسسة العربية للدراسات و النشر، بيروت، 2001، ص99.

شيئا فشيئا، و لا أعني بذلك عدم إيمانه بالشعب، بل بالواقع السياسي، لقد لمس درويش الواقع العربي المهترئ واكتشف سر الهزيمة التي لحقت بالشعب"[1]، و لكي تتضح صورة الأمل المظللة بخيوط المأساة المؤقتة، كان لا بد من الإشارة إلى تداخل الكلمات و الدلالات و المصدر المؤدي إلى النصر:

الكلمة التفاؤلية	الرمز المأساوي المُصاحب لها	مصدر القوة و التحدي
الزنبقـــات	الســـــود	القلـــــــب
اللهـــــب	الناري (رمز محذوف) و قد يدل الانزياح الكتابي ... إلى عبارة (نار اللهب)	الشفتـــــــان
صلبان الغضب	--------	الجســد المُنهك
صافحتُ التشرد والسغب	--------	اليـــــد/لأن اليد هي التي تقاوم وتسعى للتغيير
غضبٌ	---------	يدي/الجهاد والمقاومة والدفاع عن الأرض.
غضبٌ	--------	فمي/الشعر والقصيدة التي تشكل حجراً مزلزلاً في وجه المُحتل
من غضب	عصير/البرتقالي، الأحمر، الناري/دلالة على الدم و تقديم التضحية التي بدونها لا نطمح إلى انتصار	دماء الأوردة

و لأن الولادة لا تتم إلا من رحم الألم، كان لا بد من وجود صورة تنبؤية في ثنايا ذاكرة درويش المستشرفة بالغد الآتي، وتمثلت هذه النبوءة "بقصر زمن الاحتلال، واستحالة تكرار ما وقع من قتل الفلسطينيين في الماضي"[(2)]، فدرويش هو الفارس الذي يمتطي جواده المتمثل بالقصيدة يخاطب عدوه قائلا:

[1] الديك، نادي: محمود درويش الشعر و القضية، ص32.
[2] أبو خضرة، سعيد: تطور الدلالات اللغوية في شعر محمود درويش، 138.

سنخرج، ...

فلتدخلوا في أريحا الجديدة سبع ليال قصار فقط

فلن تجدوا طفلة تسرقون ضفيرتها ...

و لن تجدوا جثة تحفرون عليها مزامير رحلتكم في الخرافة.[1]

فشاعرنا دائم التحدي لإبراز الذات الفلسطينية وعلاقتها بالأرض المعشوقة، ففي قصيدته (عاشق من فلسطين) يقول:

فلسطينية العينين والوشم

فلسطينية الاسم

فلسطينية الأحلام والهمّ

فلسطينية المنديل والقدمين والجسم

فلسطينية الكلمات والصمت

فلسطينية الصوت

فلسطينية الميلاد والموت[2]

إن تكرار كلمة (فلسطينية) جاء متتاليا لسبع مرات دالا على أهمية الانتماء، و"إن تكرار كلمة (فلسطين) بما يثيره من إيحاءات عاطفية، يعبر عن تمسك بالهوية الفلسطينية وتحدٍ للمحتل مهما تغيرت صور ومسميات الغزو. لقد استطاعت الكلمة الفلسطينية أن تشق الحصار الذي ضربه عليها المحتل الصهيوني"[3]. فعامل التكرار (فلسطينية) جاء مرافقا لمفردات عدة بعضها حسي مادي وآخر معنوي غير حسي بالشكل الآتي:

الدلالة الحسية	الدلالة المعنوية
العينين	**الاسم**

[1] درويش، محمود: الديوان، ص18.
[2] المصدر السابق، ج1، ص93.
[3] الديك، نادي: محمود درويش الشعر و القضية، ط1، دار الكرمل للنشر و التوزيع، 1995، ص26.

الوشم	**الأحلام**
المنديل	**الهم**
القدمين	**الكلمات**
الجسم	**الصمت**
الصوت	**الميلاد**
	الموت

من الجدير بالذكر أيضا وجود الطباق و الجناس في الجدول السابق على النحو الآتي:

الطباق	الجناس
الصوت-الصمت	**الصوت-الصمت**
الميلاد-الموت	**الاسم-الجسم**
الأحلام-الهمّ	**الموت-الصوت**

وفي نهاية المطاف يتبين لنا أن الإسرائيلي غير قادر على المواجهة ويسعى للهرب الدائم من الحقيقة التي تنطق بها الأرض التي اغتصبها وهو لا يستحقها، ويرتجف دائما من مرارة عودتها إلى أصحابها الشرعيين، فهو على يقين بوعد السماء بأن وجوده في هذه الأرض زائل لا محالة وعلى وعي تام بأحقية الفلسطيني بها وعودته إليها بعد حين من الزمن.

الخاتمة

الحمد لله سبحانه وتعالى الذي وفقني في كتابة هذا البحث، وأتمنى من الله عز وجل أن أكون قد أصبت، فإن أصبت، فهذا توفيق من الله، وإن أخطأت، فهذا من نفسي.

لقد كان البحث بعنوان: (الحِس بالمستقبل في الشعر الفلسطيني المعاصر/ إبراهيم طوقان و محمود درويش نموذجا).

وخلاصة ما توصلت إليه في هذا البحث الذي أقمته في مقدمة تحدثت فيه عن أهمية الشعر الفلسطيني المعاصر بصورة عامة وشعر الاستشراف بصورة خاصة، وفصلين، **الأول**: الحِس بالمستقبل في شعر إبراهيم طوقان ، **الثاني**: الحِس بالمستقبل في شعر محمود درويش.

إن الاستشراف في الشعر الفلسطيني المعاصر يحمل كثيرا من الدلالات النفسية والمسوغات التشاؤمية والتفاؤلية حسب الرؤية التنبؤية التي يمتلكها الشاعر ووفقا للظروف التي يُعايشها ويتأثر بها، فالمسوغات التشاؤمية جاءت كمجموعة من الإنذارات للتحذير من ضياع الأرض قبل عام 1948م و ضرورة الالتفاف حول الصف الوطني و الوحدة و عدم التفرق. فيما كانت المسوغات التفاؤلية بنوداً داعمة للشعب الفلسطيني بأن لا ييأس من محاولة استعادة الأرض وتحريرها كونه صاحب الحق الشرعي الوحيد.

حض شعر الاستشراف عند كل من إبراهيم طوقان و محمود درويش على ضرورة التمسك والانتماء إلى الأرض أمنا الأولى و الدفاع عنها، و عدم الانصياع وراء الشعارات الرنانة التي يبثها الاستعمار وكيانه و التي بدورها توهم الشعب، فلا يجد نفسه إلا في غيابات الجب التي لا خروج منها.

نتائج الدراسة:

بعد أن أنهيت رسالتي هذه، خرجت بنتائج عدة كان من أبرزها:

1-يُعد الشعر الفلسطيني المعاصر، و بخاصة الاستشرافي منه، حاضنة للعديد من الأحداث التي وقعت، والتي ستقع في حياة الشعب الفلسطيني.

2-كانت فلسطين وما زالت نقطة الارتكاز الحقيقية في شعر طوقان ودرويش وسببا للصراع بين صاحب الحق الشرعي والعدو المغتصب قبل أكثر من مئة عام إلى أيامنا هذه.

3-الشعر الاستشرافي هو نتاج أدبي إبداعي تميّز به كل من طوقان ودرويش وغيرهم ممن عاصروا الأحداث نتيجة اطلاعهم على مجريات الحياة المختلفة و قربهم من أصحاب النفوذ السياسي.

4-هناك العديد من العوامل التي ساعدت على وجود شعر الاستشراف، وهو قوة البصيرة التي يتمتع بها كل من الشاعر طوقان ودرويش ووعيهما الناضج بما يجري حولهما، إضافة إلى قربهما من السلطة الحاكمة.

5-تناول كلا الشاعرين قضايا عدة ارتبطت بمصير الشعب الفلسطيني، كبيع الأراضي وحدوث النكبة التي رافقتها الهجرة القسرية عن البلاد، والحلم السرمدي بالعودة للوطن والحنين إليه.

6-تميّز الشاعران في قصائدهم بأسلوب الخطاب الواضح سواء كان الخطاب موجهاً لبني جلدتهم بهدف التحذير والتنبيه وشحذ الهمم، أم موجهاً ضد العدو بهدف التحدي وإثبات الهوية وحق الشرعية على الأرض.

7-استخدام الوصف المُسبق لوقوع الحدث بصورة خيالية بارعة رُسمت على أرض الواقع بكل تفاصيلها، كاستشراف حدوث النكبة والتهجير والمكوث في العراء.

8-كانت اللغة الفصيحة هي لغة الشعر الاستشرافي، فقد تميزت بالبساطة عند طوقان، في حين إنّ درويش مزج بين البساطة والصعوبة في توجيه خطابه الشعري للمتلقي.

التوصيات:

من التوصيات التي توصي الباحثة بضرورة تحقيقها:

1.الاهتمام بالشعر الفلسطيني المعاصر لما يحمله في ثناياه من حقائق تاريخية وقعت و ظل أثرها راسخا في ذاكرة الأرض، و حقائق مصيرية تحمل طابعا استشرافيا لم تتحقق بعد.

2.الاطلاع على الدواوين الشعرية التي تناولت القضية الفلسطينية وأحداثها على مدى مئة عام وترسيخ مفهوم الانتماء للأرض لدى الفرد الفلسطيني.

3.تكليف طلبة المدارس و الجامعات بإلقاء القصائد التي تبين أحقية الأرض للفلسطيني و التي كُتبت قبل عام 1948 و بعدها لكي لا تنسى الأجيال تاريخها و حضارتها.

قائمة المصادر والمراجع

القرآن الكريم

1-إبراهيم، هيام: **المرأة في شعر نزار قباني و محمود درويش**، جامعة القادسية.

2-بكّار، يوسف: **إبراهيم طوقان دراسة جديدة و مختارات**، ط1، دار المناهل، بيروت، 2007.

3-الجيوسي، سلمى خضرا، **مقدمة أنثولجيا، الأدب الفلسطيني الحديث**، مطبعة جامعة كولومبيا، نيويورك، 1992.

4-حبيب، رندا: **الحسين أباً و ابناً، الأردن في ثلاثين عاما**، دار الساقي، بيروت، 2011.

5-الحديدي، صبحي: **زيتونة المنفى**، ط1، المؤسسة العربية للدراسات و النشر، بيروت، 1998.

6-الحروب، خالد: **في مديح الثورة، النهر ضد المستنقع**، ط1، بيروت، 2012.

7-حسين، عبد الله: **تاريخ ما قبل التاريخ**، كتاب نت، 1969.

8-حمزة، حسين: **محمود درويش، ظلال المعنى و حرير الكلام**، موسوعة أبحاث و دراسات في الأدب الفلسطيني الحديث.

9-حواتمة، نايف: **الانتفاضة "الاستعصاء" فلسطين إلى أين؟**، دار الجليل للنشر و الدراسات والأبحاث الفلسطينية، 2005.

10-حواس، زاهي: **آثار و أسرار**، ج1، ط1، نهضة مصر للنشر و التوزيع، 2007.

11-أبو خضرة، سعيد: **تطور الدلالات اللغوية في شعر محمود درويش**، ط1، المؤسسة العربية للدراسات و النشر، بيروت، 2001.

12-خوري، إلياس: **سنكون يوما ما نريد**، وزارة الثقافة، ديسمبر/كانون الأول 2008.

13-الدجاني، أحمد زكي: **مأساة فلسطين بين الانتداب البريطاني و دولة إسرائيل**.

14-درّاج، فيصل: **ذاكرة المغلوبين، الهزيمة و الصهيونية في الخطاب الثقافي الفلسطيني**، ط2، وزارة الثقافة الفلسطينية، البيرة، 2017.

15-دعنا، ديما: **شهادات أيام زمان "مقدسيون يروون الحكاية"**، ط1، وزارة الثقافة الفلسطينية، البيرة، 2016.

16-الديك، نادي: **محمود درويش الشعر و القضية**، ط1، دار الكرمل للنشر و التوزيع، 1995.

17-ديوان إبراهيم طوقان ، ط2، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت.

18-ديوان عمر أبو ريشة.

19-ديوان المتنبي، دار بيروت للطباعة و النشر، بيروت، 1983.

20-ديوان محمود درويش، ج1، ط1، رياض الريّس للكتب و النشر، بيروت، 2005.

21-ديوان محمود درويش، ج2، ط1، رياض الريّس للكتب و النشر، بيروت، 2005.

22-ديوان محمود درويش، ج3، ط1، رياض الريّس للكتب و النشر، بيروت، 2005.

23-ديوان محمود درويش، ج4، ط1، رياض الريّس للكتب و النشر، بيروت، 2005.

24-ديوان محمود درويش، ج5، ط1، رياض الريّس للكتب و النشر، بيروت، 2005.

25-ديوان محمود درويش، ج6، ط1، رياض الريّس للكتب و النشر، بيروت، 2005.

26-زايد، فهد خليل: **الحروب و التسويات بين الماضي و الحاضر**، ط1، دراسة تحليلية، دار يافا العلمية للنشر، عمان، 2011.

27-سلامة، عبد الغني: **بورتريه لحماس من الميثاق إلى الوثيقة**، مركز الأبحاث-منظمة التحرير الفلسطينية، حزيران 2017، رام الله.

28-أبي سمرا، محمد: **طرابلس، ساحة الله و ميناء الحداثة**، دار الساقي، بيروت.

29-شاكر، تهاني: **محمود درويش ناثرا**، ط1، المؤسسة العربية للدراسات و النشر، بيروت، 2004.

30-الشامي، رشاد: **تفكيك الصهيونية في الأدب الإسرائيلي**، ط1، الدار الثقافية للنشر، القاهرة، 2003.

31-أبو شاور، سعدي: **تطور الاتجاه الوطني في الشعر الفلسطيني المعاصر**، ط1، المؤسسة العربية للدراسات و النشر، بيروت، 2003.

32-شراب، محمد حسن: شعراء **فلسطين في العصر الحديث صور الماضي، و الحاضر، و استشراف المستقبل**، ط1، الأهلية للنشر و التوزيع، عمّان، 2006.

33-شرارة، عبد اللطيف: **معارك أدبية**، ط1، دار العلم للملايين، بيروت، 1984.

34-صالحية، محمد عيسى، و آخرون: **مشاعل عربية على دروب التنوير**، ط1، المؤسسة العربية للدراسات و النشر، بيروت، 2009.

35-الطريفي، يوسف عطا: **إبراهيم طوقان حياته و شعره**، المكتبة الأهلية للنشر و التوزيع، عمّان، ط1.

36-طه، المتوكل: **الساخر و الجسد**، دار اللوتس، عمّان، 1992، ط2.

37-طه، المتوكل: **نصوص المدينة، القدس**، عمادة البحث العلمي و الدراسات العليا، جامعة القدس المفتوحة، الماصيون-رام الله/فلسطين، 2015.

38-عبد الرحمن، نواف أحمد: **حضارة الأندلس**، الجنادرية للنشر و التوزيع، 2015.

39-عبود، شوقي: **معجم أدباء العالم**، ط1، دار المؤلف للنشر و التوزيع، وهران، 2016.

40-عزب، خالد، و آخرون: **بقلم جمال عبد الناصر، رؤية تحليلية**، ط1، أطلس للنشر و الإنتاج الإعلامي، القاهرة.

41-عصمت، رياض: **حداثة و أصالة**، دار الفكر، دمشق، 2013.

42-العفاني، السيد بن حسين: **أنوار الفجر في فضائل أهل بدر**، المجلد الأول، ط1، جدة، 2006.

43-العقاد، عباس محمود: **سعد زغلول زعيم الثورة**، ط1، بيت الياسمين للنشر و التوزيع، القاهرة، 2017.

44-الغلاييني، مصطفى: **جامع الدروس العربية**، ط36، المكتبة العصرية، صيدا-بيروت، 1999.

45-فرّوخ، عمر: **شاعران معاصران، إبراهيم طوقان و أبو القاسم الشابي،** ط1، المكتبة العلمية، بيروت، 1954.

46-فضل، صلاح: **محمود درويش، حالة شعرية،** ط1، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، 2010.

47-مازور، آدام: **إسرائيل 2020، الخطة الشاملة لإسرائيل في سنوات الألفين،** المركز الفلسطيني للدراسات الإقليمية، البيرة.

48-محمود، عبد الرحيم: **الأعمال الكاملة،** جمع و تحقيق عز الدين المناصرة، دار الكرمل، عمان، 1993.

49-مرشليان، إيفانا: **أنا الموقع أدناه محمود درويش،** دار الساقي للنشر و التوزيع.

50-مغنية، محمد: **الغربة في شعر محمود درويش (1972-1982)،** ط1، دار الفارابي، بيروت، 2004.

51-الملثم، البدوي: **إبراهيم طوقان في وطنياته و وجدانياته،** المكتبة الأهلية، بيروت، 1964، ط1.

52-الملثم، البدوي: **الوطن في شعر إبراهيم طوقان،** 1960.

53-مواسي، فاروق: **محمود درويش، قراءات في شعره.**

54-ابن منظور: **لسان العرب،** دار صادر، بيروت.

55-ناطور، سلمان: **رحلة سبعة و ستين عاما،** ط1، وزارة الثقافة الفلسطينية، البيرة، 2017.

56-النحاس، هشام: **معجم فصاح العامية،** مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، 1997.

57-النقّاش، رجاء: **محمود درويش شاعر الأرض المحتلة،** ط2، دار الهلال.

58-نور الدين، ساطع: **محطة أخيرة.. خارج السياق،** ط1، دار الفارابي للنشر والتوزيع، بيروت، 2009.

59-يعقوب، أوس داوود: **محمود درويش، مختارات شعرية ونثرية،** دار المنهل للنشر، 2011.

الدوريات:

1-الأسطة، عادل: **حماس و محمود درويش،** جريدة الأيام 2013/9/1.

2-الأسطة، عادل: **الزعامة الفلسطينية في النص الأدبي ما بين طوقان و كنفاني و المتوكل طه،** مجلة تسامح، آذار 2005، ع8.

3-إسماعيل، عبد الله: **إبراهيم طوقان في ذكراه الثانية و الأربعين**، قراءة في شعره الوطني، مجلة الفجر الأدبي، ع36/35، آب/أيلول، 1983.

4-أغبال، رشيدة: **الرمز الشعري لدى محمود درويش**، الرمز الطبيعي، مجلة علامات، ع 26.

5-برزق، مروان محمد: **الشاعر إبراهيم طوقان يملك نبوءة التشرد و النكبة**، مجلة الموقف العربي، ع73.

6-بسيسو، إيهاب: **الثقافة في مواجهة رواية الاستعمار**، مجلة فلسطين الشباب-وزارة الثقافة، رام الله، عدد 129، أيلول 2017.

7-البصراوي، هيفاء: الاستشراق**: مقدمة أنثولوجيا، الأدب الفلسطيني الحديث**، اف في الشعر، مجلة الجزيرة الثقافية، 19 كانون الأول/ديسمبر 2015.

8-جهاد، كاظم: **عزلة الشاهد، محمود درويش في مجموعته الشعرية الأولى و قصائده الأخيرة**، مجلة الكرمل، دراسات3.

9-حمزة، حسين: **الصياغات النهائية و تحول المعنى، محمود درويش نموذجا**، مجلة مجمع اللغة العربية-حيفا، عدد 3، 2012.

10-أبو خشان، عبد الكريم: **الأنا و الآخر عند إبراهم طوقان**، مجلة الشعراء، صيف 1998.

11-خوري، إلياس: **الشاعر و الأوغاد... محمود درويش في شرك الغواية**، صحيفة الأيام الفلسطينية، 2016/9/20.

12-دحبور، أحمد: **إبراهيم طوقان في مئوية ميلاده: هل الشعر أسلوب حياة**، مجلة الكرمل، ع 85، خريف 2005.

13-رضوان، محمد: **الشقيقان طوقان، الشعر يقاوم جبروت الانتقام**، مجلة الهلال، ع5، مايو 2014.

14-زرديني، مرضية زارع: **ظاهرة التناص في لغة محمود درويش الشعرية**، مجلة التراث الأدبي، السنة الأولى، العدد الثالث، 1388.

15-الزعبي، أحمد: **فضاءات قصيدة "سرحان يشرب القهوة في الكافتيريا"**، جريدة الخليج، 2 كانون الثاني/يناير 2010.

16-سلمان، ختام سعيد: **أبو محجن الثقفي المتأرجح بين المعصية و الطاعة**، مجلة كلية العلوم الإسلامية-جامعة بغداد، ع42، 13 رمضان 30/1436 حزيران 2015.

17-الضمور، عماد عبد الوهاب: **فلسطين في شعر محمود درويش**، جريدة الدستور الأردنية، الخميس 6 نيسان/أبريل 2017.

18-طوقان، فدوى: **إبراهيم و أنا**، مجلة الجديد في عالم الكتب و المكتبات، دار الشروق للنشر و التوزيع، ع6.

19-عباس، إحسان: **نظرة في شعر إبراهيم طوقان**، مجلة الجديد في عالم الكتب و المكتبات، ربيع 1995، ع6.

20-عبد الغني، هاشم: **مهمة المثقف استشراف المستقبل**، مجلة الوطن، الأربعاء 15 من ذي الحجة 1438 هـ/ 6سبتمبر2017م، ع 8039.

21-أبو فخر، صقر: **ياسر عرفات و المثقفون**، مجلة فلسطيننا، ع 316، 2013/12/2.

22-قاسم، سيزا: **المفارقة في القص العربي المعاصر**، مجلة فصول، المجلد الثاني، ع2،1982.

23-المديني، أحمد: **من احتلال الأرض إلى تحولات النص**، مجلة الفيصل، العددان 497، 498، جمادى الآخرة-رجب 1439/مارس- إبريل 2018.

24-المعلوف، رفيق: **شعراء كتبوا بدم القلب**، مجلة العربي، ع 545، أبريل 2004.

25-ملا إبراهيمي، عزت، و آخرون: **الرمز و تطوره الدلالي في الشعر الفلسطيني المقاوم**، مجلة القسم العربي-جامعة بنجاب، لاهور-باكستان، ع 24، 2017.

المواقع الإلكترونية:

الأندلس أرض الميعاد للغجر، https://www.youtube.com/watch?v=gMn8D2eXP4c

الغجر في إسبانيا.. عندما تندمج الموسيقى مع الجغرافيا
https://www.youtube.com/watch?v=Cmrw7ZjAc-M